يوكيو ميشيما

موتٌ في منتصف الصيف

Telegram:@mbooks90

'أحد أعظم الكتّاب اليابانيين
في القرن العشرين'
The New Yorker

من الأدب الياباني

ترجمة وتقديم
إسكندر حبش

قصص

دار الساقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

لم يكن يوكيو ميشيما (مواليد العام 1925، واسمه الحقيقي كيميتاكي هيراوكا) حين انتحر في العام 1970، بطريقة "السيبوكو" (شقّ البطن) كاتباً عادياً، بل حاز شهرةً وحضوراً كبيرين، لا في اليابان وحدها، بل أيضاً في جزء كبير من العالم. من هنا جاء انتحاره ليهزّ عالم الثقافة الذي فقد برحيله واحداً من الأصوات المميّزة التي عرفت كيف تصوغ رؤى ولغة وحضوراً، جعلته ممثلاً لأدب استطاع أن يمتلك القدرة على ممارسة سحره على قراء العالم.

Telegram:@mbooks90

فلو عدنا إلى ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، لوجدنا أن هذا "السحر الأدبي" كان يأتي من بلدين وأدبين، هما أدب أميركا اللاتينية كما الأدب الياباني، اللذان بذلا كثيراً في مفاهيم القراءة والكتابة لدى كثيرين. وكأن العالم في لحظة ما، اكتشف ذاك الإشراق الذي يمكن له أن يأتي من أدب لا يوصف عادة بأدب المركز، بل أدب الأطراف. لكن هذا الأدب، تحوّل في سنوات قليلة، ليكون هو المركز الأساسي، وكأن القرّاء الذين انجذبوا إليه، أرادوا أن يقولوا إن هذا الأدب الأوروبي الذي كانوا يقرؤونه، قد فقد الكثير من متعته وسحره، بل أكثر من ذلك، هناك أدب حقيقي يفوق ما يُنتج في هذه القارة العجوز.

صحيح أن بعض السمات "الإكزوتيكية" – فيما لو جاز القول – قد لعبت دوراً في جلب هذه السحرية، لكن الوقوف عندها فقط، يلغي كتابة بأكملها. فهذان الأدبان، لا يقفان فقط عند هذه النقطة، بل يتخطّيانها إلى ما لا يقاس؛ ليرسما لنا عالماً متكاملاً. فالأدب الياباني، على سبيل المثال، لم يكن فقط أدباً غارقاً في تقاليده، ولا يرسم فقط لوحة ضيقة عن بلاده، بل عرف من خلال اتكائه على مفرداته ولغته وعادات وتقاليده أن يفتح أفقاً إنسانياً يمسّ القراء في مختلف أنحاء العالم. عرف أيضاً كيف يطرح قضايا أشبه بقضايا الجميع.

في أي حال، جاء الأدب الياباني ليبدو واحداً من أهم آداب العالم، ليشكل "قنبلة حقيقية"، غيرت وبدلت العديد من مفاهيمنا حول الأدب والكتابة. ليس في عالمنا العربي وحسب، بل في العالم بأسره. ففي لحظات كثيرة، تخال، للوهلة الأولى، أن

كُتاباً مثل ميشيما وكاواباتا وتانيزاكي وهاروكي موراكامي وبنانا يوشيموتو (ناهيك بشعر الهايكو) وشوساكو إندو، وغيرهم وغيرهم، ليسوا كُتاباً يابانيين؛ وأقصد بذلك، أنهم يحضرون في نقاشنا اليومي حين نرغب في التحدث عن الأدب. وإن دلّ ذلك على شيء، فلا بدّ أنه يدلّ على مدى تغلغل هذا الأدب في... أدبنا نحن.

لا يمكن القول إن يوكيو ميشيما – مثله مثل العديد من الكُتاب اليابانيين – غريب عن اللغة العربية، فقد تُرجمت العديد من أعماله إليها (وإلى لغات أخرى بالطبع)، واكتشفنا معها واحداً من كبار كُتاب القرن العشرين، المتجذر في تقاليده التراثية اليابانية، لكن أيضاً، العارف بمناخات الكتابة الحديثة، المطلّ على عصره وتحولاته – الاجتماعية والسيكولوجية – بقوة كبيرة. وكأنه بذلك، يؤكد لنا تلك المقولة الشهيرة: لا يمكن لك أن تكون عالمياً، إلا بقدر ما تكون متجذراً في بيئتك.

سلسلة كبيرة من الأعمال الفريدة ذات المناخات المتنوعة، التي تراوحت بين الرواية والقصة (القصيرة والطويلة، وإن أطلق الكاتب عليها اسم "سرد")، كما البحث والمقالة، جعلته في طليعة كتابة لا تتوقف عن ممارسة فتنتها علينا.

ولد يوكيو ميشيما في طوكيو يوم 14 كانون الثاني/ يناير من العام 1925، وعلى الرغم من أن أصول عائلته لا تنتمي إلى أصول أرستقراطية، فقد تردّد إلى مدرسة النبلاء حيث غرف هناك، وبقوة، من كلاسيكيي الأدب الياباني، بالإضافة إلى بعض الأدب الغربي مثال أوسكار وايلد (الذي ذكره ميشيما في العديد من كتاباته) وراديغيه، وغيرهما ممّن تركوا عنده ميلاً ما إلى الأدب: في واقع الأمر، كان في السادسة عشرة من عمره حين كتب قصته الأولى **غابة مزهرة** التي صدرت العام 1944، مع قصص أخرى.

بعد دراسة الحقوق في جامعة طوكيو، دخل ميشيما للعمل في وزارة الاقتصاد، إلا أنه سرعان ما غادر الوظيفة ليتفرغ للكتابة والأدب. من هنا أتت رواية **اعترافات قناع** في العام 1949 لتؤكد شهرته بشكل كبير ورسمي. وهو مذ ذلك الوقت، ولغاية رحيله في 25 تشرين الثاني 1970، لم يتوقف ميشيما عن الكتابة، مقترباً من أنواع متنوعة.

وعلى الرغم من النجاح الجماهيري الساحق لروايته **اعترافات قناع**، فقد ابتعد ميشيما عن الرواية المكتوبة بضمير المتكلم، ليذهب ويغرف مناهله من المصادر الكلاسيكية، من هذا الجانب أتت روايته **صخب الأمواج**، التي هي في العمق، اقتباساً لأسطورة "دافني وكلويه" (الغربية) وإسقاطها على الواقع الياباني. من ثم، في العام 1956، أتت رواية **المعبد الذهبي**، التي تستوحي أحداثها من أخبار الصحف المتفرقة والتي تحدثت عن حريق معبد طوكيو الشهير.

مع **وطنية** (1951) التي تتحدث عن ضباط شبان تورطوا في عملية الانقلاب العام 1936، وهو انقلاب ذو "تطلعات وطنية وشرعية"، بدأ ميشيما أولى "سردياته" التي اندرجت تحت ما عرف باسم "أدب ميشيما الملتزم". وفق هذا المفهوم، نقرأ أيضاً **أصوات الأرواح البطولية**، وفيها يتحدث الكاتب، ويهاجم، الفساد المستشري، والذي يرتبط، وفق ميشيما، بفكرة الديموقراطية وبأنسنة صورة الإمبراطور، لكن أيضاً، نقرأ فيها تمظهرات مفهومه لعلم جمال الموت. وهذا ما قاده لأن ينشر العام 1963 رسالة حول هاياشي فوزاو التي يتساءل فيها حول الإتيقا (علم الأخلاق) التي يقترحها "درب السيف والريشة".

بعد سنتين بدأ ميشيما بنشر رائعته الكبرى: رباعيّته **بحر الخصوبة** التي تعاقبت فيها الغنائية الوجدانية، والمطالبة باستعادة قيم الزمن الماضي، كما تحدث عن اليأس أو لنقل عن الدهشة التي يشعر بها تجاه الموت وما يمارسه هذا الأخير من "سحر" عليه. من هنا، وبعد أن أنهى من كتابة الصفحات الأخيرة من هذه الرباعية وبعد أن أرسلها إلى الناشر، حاول – سدىً – أن يعيد إحياء فكرة الماضي والوطنية والقيم المنسية، وقد قاده الفشل بذلك إلى القيام بشعائر الـ"سيبوكو"، وهو الانتحار العلني على الطريقة اليابانية بغرز السيف في بطنه. حركته هذه كُتب عنها الكثير، ومهما اختلفت التحليلات حولها، إلا أنها لا تفعل شيئاً سوى إضافة قيمة مضاعفة حول الكاتب كما حول أدبه.

يضم هذا الكتاب مجموعة من القصص الطويلة (أو النوفيلا) التي كتبها ميشيما في فترات متفرقة من حياته (بين 1949 و1967) وهي بذلك تتيح لنا الإطلالة

على تطور أسلوبه الكتابي، كما على تطور موضوعاته وأفكاره، وإن كانت تتشابه في النهاية، بأنها صادرة عن كاتب واحد. فـ **رحلة مضجرة** عن امرأة متقدمة في السن، تعيش مع عشيقها الشاب، الذي يشكل لها غطاء لغرامياتها المتعددة، بينما **موتٌ في منتصف الصيف** تروي لنا قصة عائلة تفقد اثنين من أبنائها غرقا في البحر خلال عطلة صيفية، ليصور لنا ميشيما حالات الأب والأم، في محاولة تخطي هذه المأساة. مع **اللؤلؤة**، ندخل إلى عالم البورجوازية اليابانية، من خلال حفلة عيد ميلاد لسيدة تفقد خلالها اللؤلؤة التي كانت تزين خاتمها، وما تبع ذلك من محاولات صديقاتها لإبعاد شبهة السرقة عنهن، في حين تأخذنا قصة **صبيحة حب طاهر** إلى حياة زوجين يتقدّم بهما العمر تدريجياً، وما يقومان به من أفعال لدرء الملل الذي أصاب حياتهما المشتركة. أما **من أعماق الوحدة** فعن كاتب وعن كيفية تواجهه مع قارئ معجب بأدبه، لا يتورع عن اقتحام منزله من أجل الحصول على نسخة موقعة من أعماله.

مناخات متعددة، وأفكار متنوعة، يقدّمها لنا ميشيما، وفي هذا التنوع، نكتشف تلك المساحة الكبيرة للحياة التي تأخذنا إلى قلب بلد لا يتوقف عن فرض سحره علينا.

إسكندر حبش

رحلة مضجرة

(1949)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"أوه، كم هي جميلة! انظر إليها، إنها شجرة كرز مزهرة"...

كان ذلك صوت أمّ تتحدث مع ابنها. تشبّث الطفل، البالغ من العمر خمس أو ست سنوات، بالدرابزين، وحدّق من أعلى الرواق الخارجي لقاعة الاحتفالات، في شجرة الكرز الكبيرة، مُطلِقاً صرخة إعجاب. بدا الأمر وكأن طفلاً من طوكيو، نشأ بعد الحرب، لم يسبق له أن أطلق صرخة مندهشة أثناء تحديقه في شجرة كرز. كان تسوتومو، بالتأكيد، طالباً، لكنّه كان أيضاً طفلاً ما من طوكيو، وبالتالي لم يُظهر أدنى عاطفة. في أيّ حال، حدّق في الشجرة قائلاً لنفسه إنها "شجرة كرز مزهرة"، بعيداً عن تخيّل أن التسمية جاءت من جهل لا يُغتفر من جانب إحدى المقيمات في كيوتو. في الواقع، لا تزال شجرة الكرز تحمل أزهاراً تنثني فروعها تحتها، والأوراق، ذات الأطراف المتكتلة، تكشف فقط عروقها الخضراء الداكنة بين الأزهار.

"ثلاثة؟ لا ينفع هكذا أبداً. لا ينفع أن نكون ثلاثة في الصورة، سيجلب ذلك النحس".

كان صوتاً صاخباً طفولياً سمعه خلفه. استدار تسوتومو وابتسم من دون سبب.

تمّ تقسيم صالة العرض بستارة حمراء وبيضاء. في الجانب الآخر، كانوا يحتفلون بعرس. أما هذا الجانب، فقد تمّ تخصيصه كصالة لـ"رقصة جيون". كانت الراقصات الثلاث على وشك التقاط صورة لهنّ وهنّ يقفن أمام الستارة، عندما هربت إحداهن بخطوات صغيرة محتجة بقولها هذا. أمسك بها المصور ليبدأ بالنقاش معها. أصغر الراقصات، تلك نفسها التي أصدرت احتجاجها الصارخ، سمحت لنفسها بأن تلعب لعبة الإغواء، كما لو كانت شخصية شابة متقلبة تقوم بدورها على خشبة المسرح، إذ لوت نصفها الأعلى بعنف. تأرجح حزامها، الفضفاض، على طريقة راقصات كيوتو، بشكل كبير، من اليمين إلى اليسار. أما رفيقتاها، اللتان كانتا تراقبانها وهما تضحكان، فقد بدت شفاههما صارخة من شدّة التبرج واللون الأحمر يلمع عليها مثل يراعة.

"ماذا تشاهد؟" سألت السيدة كورومازاكي وهي تنقر ظهر تسوتومو بإبهامها.

كانت هذه عادتها، إلى درجة أنها كانت تضربه بوحشية تقريباً. أما أظفارها كلّها

CamScanner

فمزينة بطلاء وردي شاحب.

"لديّ الحق في أن أشاهد ما أريد"، أجاب تسوموتو بعبوس.

كانت سترته ذات الصدر المزدوجة، الربيعية، والتي أهداها لنفسه، تبدو بوضوح أنها تضفي عليه نظرة مارقة. علاوة على ذلك، فقد انتهى الأمر بهذا الطالب بأن أصبح شبيهاً بشخص سفاح. كان في عمر يؤثر فيه المظهر بشكل كبير على الشخصية.

– هل تشعر بالملل فعلاً؟

– أجل.

– لا داعي للنزوات الآن. لقد جئنا من كيوتو في جميع الأحوال!

نظرت السيدة كورومازاكي إلى الحديقة، وهي ترمش عينيها. كانت تعاني من قصر النظر، ولكي تبدو مفناجة، لم تضع نظارات قطّ. أصيبت بوزن زائد، وخوفاً من إصابتها بذقن مزدوج، اضطرت إلى وضع طوق لتصليب رقبتها. يمكن لهذا الموقف أن يبدو محترماً، لكن نظراً إلى كونها سجينة العديد من القيود الجمالية، لم تعد قادرة على السماح لنفسها بالتصرف برفق. ما قد يضاعف من سمنتها وبالتالي جعلها تعيش حالة من القلق المستمر. بأصابعها الممتلئة، المحمّلة بالخواتم، كانت لا تزال تنقر جزءاً من جسد تسوتومو، مثل شخص أعمى. في البداية، وجد الصبي أن هذا الهوس أمرٌ مثير للاشمئزاز، لكن انتهى به الأمر إلى عدم المبالاة به. وليحاكي السيدة كورومازاكي، فكّر في أنّه لعبة.

صدحت نقرتا صناجة. كان الستار على وشك أن يُفتح على مشهد "ألف زهرة كرز"، من تأليف يوشيتسوني، ويؤديه راكوسوكي وناروكيتشي. في هذا العام، اتخذ قرار إقامة "رقصة جيون" بشكل متواضع في هذه الصالة، إزاء "رقصة نهر كامو" التي جرت في بونتوشو.

"هيّا بنا؟"، همست السيدة كورومازاكي بنبرتها الشهوانية.

– لنبقَ قليلاً بعد.

– يضايقني فعلاً أن أجعلك تجلس على الأرض حقاً.

– اذهبي وحدك.

– ها قد عدنا من جديد! كم أنك شقيّ!

استمتعت وهي توخز راحة يد الطالب، لتجلس لاحقاً على كرسيّ بالقرب من النافذة فأشعل تسوتومو سيجارة لها.

كان بإمكانها، من مكانها، أن ترى، خلف الصناديق، منصة حيث المقاعد. كان هناك ضيوف أجانب يشاهدون العرض، ويخنقون تثاؤبهم. في الخلف أيضاً، تمّ تجميع المتفرجين الواقفين المعروضين للهواء الطلق. كان بعض الأشخاص يخرجون، بين الحين والآخر، إلى الممرّ وقطرات العرق تتدلى على أنوفهم، تحت تأثير دفء الأيام الأولى من شهر أيار. سارع رجل يرتدي جوارب بيضاء – وكان من الواضح أنه شخص ينتمي إلى عالم الفن – إلى شقّ طريقه من بينهم، وهو يحني ظهره. كان على وشك النزول من جانب غرف تبديل الملابس الخاصة بالفنانين، في الطابق الأرضي، عندما التقت نظرته بنظرة السيدة كورومازاكي. كان تلميذاً لأستاذه في الناغوتا(1). أو بالأحرى، هو مساعد معلّمه، لكنه حقّق نجاحاً أكبر مع الطالبات.

(1) أغنية مصاحبة للكابوكي. (المترجم)

تعرفت عليه السيدة كورومازاكي وحيّته قائلة:

– يا للغرابة، انظر كيف نعود ونلتقي!

– حسناً، لو كنتِ تعرفين فقط... لقد طُلب مني إعطاء الدروس، منذ الشهر الماضي.

– أهي دروس حقاً؟ أراهن أنه لم يعد لديك أي رغبة في العودة إلى طوكيو.

– أتمزحين... يمكنك أن ترين كيف أنهم يستغلونني كمتدرب... يجب أن أتركك، سأعود حالاً.

بعد ذلك، أشار بتحية في اتجاه تسوتومو لا تخلو من الإحراج.

كان تسوتومو قد رأى هذا الرجل عدة مرات، وهذا الأخير كان يدرك جيداً طبيعة علاقة السيدة كورومازاكي به. حتى إن كان يفتقر إلى الثقافة تماماً، إلا أن تسوتومو قد تكهّن، على طريقة شبّان اليوم الذين يملكون نظرة واضحة حول الكائنات البشرية، بأن هذا الآخر كان فتى صادقاً على خلاف بيئته. فمن حيث الشكل، كان يبدو كائناً اجتماعياً بما فيه الكفاية. إلا أنّ عينيه تميلان إلى النظر أرضاً، من دون أن يحدق البتة في من يخاطبه، بشكل متساوٍ. لا يتأتى هذا الوضع من طبيعة حقيرة، بل من خجل لا يُشفى مع التقدم في العمر، وهذا ما تؤكده ابتسامته الناعمة التي ترسمها غمازات وجهه الطفولي. إنه وريث عائلة كينيه-يا. أما تسريحة شعر هذا المعلم الشاب، الذي تدعوه السيدة كورومازاكي "ريوتا"، فهي توحي بأنه قد خرج لتوّه من عند مصفف الشعر. حين لاحظ تسوتومو ذلك، مرّر يده عبر شعره الأملس الذي لم يسرحه منذ أن كان في طوكيو. وما إن لمسه حتى قبضت التصفيفة على أصابعه. تمرأى تسوتومو في الزجاج الذي غرق بالظلال.

رأى حينذاك، من الجانب، السيدة كورومازاكي وهي تخرج علبة المساحيق لتعيد ترتيب تبرّجها. وعبر سرعة يدها التي كانت تضع المسحوق بشكل محموم، خمّن تسوتومو، تقريباً، حالتها العقلية. مرة أخرى، سوف يحصل على إجازة قصيرة ومكافأة ضخمة. لم يشعر بأونصة من الغيرة. كان كلّ شيء، بالنسبة إليه، مجرد عمل، ولا شيء أكثر من كونه وظيفة يشكل فيها الكسل مصدر الربح: إنّ إنفاق المشاعر الخفيّة، غيرَ المجدي، ليس سوى مضيعة للوقت.

التقى تسوتومو بالسيدة كورومازاكي في خريف العام الماضي بمحض الصدفة. وهي، منذ ذلك الحين، تُقدم له الدعم في مناسبات مختلفة. كان يجهل من أين مصدر مالها، إلّا أن الأمر انتهى به بالانتقال للسكن في منزلها. وعلى الرغم من أن زوجها كان راضياً عن قضاء ليلتين أو ثلاث ليالٍ هناك خلال الشهر، فقد ظلّت زوجته الشرعية، تسمح لها عائداتها، المجهولة المصدر، بأن تعيش حياتها بالشكل الذي تراه مناسباً. كانت تصنع ملابس تسوتومو حسب الطلب. اشترت له أحذيةً وقبعاتٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وربطاتِ عنق، على الرغم من أنها لم تكن تنمّ عن ذوق رفيع. كانت تحب أن تجعله يرتدي سترات تعطي انطباعاً بأنه شخص يحبّ المرح. لكن، عندما أدرك أخيراً، أن هذا الموقف يمكن تفسيره من خلال نبل عاطفي لاستغلال فتى شاب، كان قد غرق بالفعل، في فئة أخرى من الاستغلال، تلك الفئة التي توقعتها: تمّ تخفيض مكانته لأن يصبح دمية حب. حتى انجذابه إلى فتيات صغيرات في مثل سنّه أحيل إلى ضرب من العدم. كلّ ما تبقى له في النهاية هو هذا الولاء الميكانيكي الحصري للسيدة كوروماز اكي.

على سبيل المثال، كان فارسها الخدوم عندما تريد أن ترقص. وفي عيون الجميع، كان يُسقى زير نساء. في البداية وجد الأمر مؤلماً. ولكن، لولا حماية السيدة كوروماز اكي، لاضطرّ إلى بيع الفول السوداني عند مدخل جسر شيمباشي ولم يكن ليتخيل أبداً أن يكون قادراً على الرقص في هذا الزيّ: لم يكن يتصور سوى المرارة التي يمكن رؤيتها في مشاهدة صبيان وفتيات غير مبالين عندما يرقصون وكأن ذلك، بالنسبة إليهم، أكثر الأشياء طبيعية في العالم، الأمر الذي سلب منه كلّ متعة. وإذا قام يوماً بدعوة فتاة من عائلة محترمة، جرى تقديمها إليه عن طريق الصدفة، كان يدرك على الفور أنها ترى فيه شخصاً من محيط مختلف، باختصار، شخصاً لا يتمتع بكفاءة للعب هذا الدور. لكن ثمة فتيات صغيرات أظهرن اهتماماً رومانسياً بهذا النوع الخاص من العلاقات. حينذاك، يشعر تسوتومو بأنها نظرة لإحدى الزائرات لحديقة الحيوان، التي جاءت لمشاهدة بهيمة مكتئبة في جحرها الشنيع.

حتماً، لم يكن يقدم سوى قناع اللامبالاة حين يتلفظ الآخرون بأحكامهم. وعلى الرغم من أنه جرى تقديمه لشريكات رقص أخريات، فقد كان يتمسك دائماً بالسيدة كوروماز اكي، وإذا ما قبلت، هي، دعوة من شخص آخر للرقص، كان يحتسي كأسا من الجعة، وعلى وجهه تعبير خبير ضليع بالشراب.

لم يعد يشعر بأي غيرة تجاه الشباب الذين يرقصون بمرح. وحين يرى ثنائياً لطيفاً، كان يتخيّل حتماً إيماءات الفتاة الشديدة الحياء، وبعيداً عن التأثر بنضارة قلّة الخبرة، لم يعد يشعر بأي شيء يتصاعد داخله سوى شفقة ساخطة.

"الشباب ليس في الأساس سوى اسم يطلق على شغف أخرق. الحمقى! ما الذي يسلّيك كثيراً ويمنحك تلك الابتسامة السخيفة التي تجعل لعابك يسيل تقريباً؟".

نظر حوله بنظرة مليئة بالاحتقار، مليئة بالشعور بأهميته. وعلى الرغم من صغر سنه، فهو يحتقر إحساسه بأنه بلغ مبلغ الحكمة، بسبب تحمله للعديد من العذابات النفسية. لكي يبرر الإهمال الذي عاش فيه خلال حياته الطلابية، احتاج إلى الوهم بأنه ناضج جداً لدرجة أن الكلية أصبحت بلا جدوى.

لم يعطِ لوالديه، اللذين يعيشان في كوبي، حتى عنوانه. كان لديهما الكثير من المخاوف المالية ليهتما بتقلبات حياة تسوتومو، الذي كان الأصغر بين خمسة أولاد فقط. أما والده فيعمل خبيراً في شركة تأمين.

دائماً ما كانت السيدة كورومازاكي تسافر في رحلة، ما إن تطرأ نزوة في بالها. بشكل عام، كان الرحيل يسبقه شجار أسود مع زوجها، مصحوباً بالتعليق التالي:

– سآخذك في رحلة، يا تسوتومو، وسنرتكب انتحاراً مزدوجاً. لكن قبل ذلك، سأبعث برسالة إلى إحدى الصحف أخبر فيها بكلّ شيء عنك.

– افعليها إن استطعت.

– سترى، سأفعل ذلك. لكن لا تبدأ بالنحيب بعد ذلك.

– حسناً، خذي الأمور ببساطة. سأعتني بجنازتك.

– شكراً هذا لطف منك.

كانت السيدة كورومازاكي متوترة للغاية، بحيث تكتم دموعها، حتى إنّ وجهها ينتفخ مثل وجه طفل عابس. من ثم، ولمدة ساعة، تعمل على حزم أمتعتها بصمت. تحمرّ عيناها، تجوب المنزل لتجمع أشياءها: فرشاة الأسنان، المعجون، كريمات التجميل، محفر الوجه، الأمشاط، العطور، المناشف، وأكثر من ذلك بكثير. تضع أقراطها حول حبل الكيمونو الذي تشدّه على بطنها. تتكفل بحقيبة سفرها الخاصة التي ملأتها بكومة الأشياء غير المتجانسة، لتركض إلى غرفة تسوتومو وتنهار

بالبكاء.

"تسوتومو، عدني أن تموت معي! حسناً؟ سنموت معاً".

أصيب بالذهول، لذا بدا عاجزاً عن الكلام وهي تركض في جميع أنحاء الغرفة لتكديس كلّ أغراضها التي كانت في متناول اليد، في حقيبة أخرى.

في قلب هذا الاضطراب، كانت أسيرة عاطفة رومنسية تفضي إلى شهوانية ما. فقبل هذه الرحلة إلى كيوتو، أيضاً، كانت قد أمسكت بمستحضر تجميل موضوع أمام المرآة، وقبل أن تضعه في الحقيبة، قامت بفك الغطاء لتتنشق رائحة العطر. ثم وضعت خدها على خدّ تسوتومو، وهي تبكي. سألها ما الذي جعلها على هذه الحالة. فأجابت بتحليل مفصل عبر إيماءاتها وحركاتها، لكن مع احتفاظها بتعبير يختلط فيه الضحك والدموع بانزعاجها. تسوتومو نفسه كان قد شعر بأنه محرج من ذلك أيضاً.

"لأنني عندما رأيت شعرك ملتصقاً بعصا الشبكة، شعرت بنفحة من الحنان. الأمر مضحك، أليس كذلك؟ كنت على استعداد للموت معك، لكن، بعد أن شاهدت ذلك، لم أستطع إلّا أن أتخيّل أنّك قد متّ قبلي وأنني كنت أحدّق في هذه العصا بشعرك، كما لو كنت قد تركتها لي... وحين فكّرت في أنّك، أنت الصغير جداً، قد متّ من أجلي، بدا لي الأمر لا يحتمل"...

كان عليه أن يشعر بالاشمئزاز، عند هذه المرحلة، لكنه استمع بلا مبالاة إلى هذا التدفق الكلامي الوقح. ترك مجلة إباحية مفتوحة على طاولته، وأدار مقعده وألقى نظرة مشتتة على ساقَي السيدة كورومازاكي، بينما هيّج الدخان المنبعث من السيجارة التي كان يحملها بين إصبعيه، عينيه. رأى لحماً سميناً، أبيضَ، غير حساس، مثل ربلتي خادمة، وهذا ما كان يخون طبيعته. إلّا أنه قال لنفسه، في أعماقه: أي أهمية في أن يتركها تقتله؟ بالتأكيد لم يكن الحب. ففي حالة من حالات عدم الإخلاص المخيف، سوف يتخلى عن رغبة الموت ببطء للرغبة في موت سريع.

لم تستمرّ كآبتها سوى ثلاث ساعات، هي مسافة رحلة القطار، إذ غلبها النوم أخيراً. عندما استيقظت، توسّلت إلى تسوتومو أن يذهب ليشتري لها بعض الآيس كريم.

وعندما عاد إلى مقعده، كانت يداه تتعرقان من جراء أوعية الآيس كريم التي لم يكن موسمها. شكرته بنبرة لم تكن بالتأكيد نبرة امرأة كانت تستعد للموت بعد يومين أو ثلاثة أيام.

اختارا المكوث في فندق هيراجيا. وبعد يومين من السياحة الملائمة لهما في كيوتو، ذهبا إلى ذاك العرض في ذلك اليوم.

ومثلما كان متوقعاً، دعت السيدة كورومازاكي المعلم الشاب لتناول العشاء. وبعد أن استفسرت في النُزل، علمت أن هناك مطعماً فرنسياً، مشهوراً لدى ذواقة كيوتو، يقع في قبو متجر لبيع الملابس في شارع كاواراماتشي. هذا هو المكان الذي اختارته، إذ افترضت أن المعلم الشاب قد سئم بالتأكيد وجبات كيوتو.

بدأ يقين تسوتومو يتزعزع مقابل طواعية ريوتا، الذي لم يكن يعبّر بوضوح عن رغباته. قد يبدو هذا النوع من التراخي ملتبساً.

– سيدي ريوتا، هل يمكنك تناول العشاء معنا هذا المساء؟

– لمَ لا؟

– لقد نصحوني بأفضل مطعم فرنسي في كيوتو. أيناسبك ذلك؟

– حسناً. ألا يزعجك هذا؟

– لا على الاطلاق. هذا الصغير يشكل جزءاً من الديكور.

عبّر تسوتومو عن سخريته عندما أطلقت عليه لقب "هذا الصغير". لقد شكّل ذلك بياناً وتلميحاً، في الوقت عينه. لقد كان عليه أن يواجهها بأكبر قدر ممكن من اللامبالاة المهنية. لذا أظهر تواضعاً زائفاً، مثل كلب مدرَّب جيِّداً.

زرر ريوتا بعناية فائقة الرداء الذي كان يرتديه في حفل الشاي، وصولاً إلى خطاف الياقة، لكن ذلك الأمر بدا لتسوتومو أنه حدث كردّ فعل دفاعي. فبينما كان يسير على الرصيف منتعلاً السيتا(2)، اضطرّ بطبيعة الحال إلى السير بخطوات صغيرة. جعلته هذه الطريقة في المشي يبدو مضطرباً بلا داعٍ، ما أحرج تسوتومو إلى جانبه. نظر

الثلاثي باهتمام إلى النوافذ التي تتلاحق وراء بعضها بعضاً.

(2) صندل من لحاء الخيزران بحزام مخملي ونعل جلدي. (م.)

"كيف تجد تصميم ربطة العنق هذه؟" سألت السيدة كورومازاكي بحماسة، "أليس رائعاً؟".

نقرت على الزجاج بأظفارها الوردية الشاحبة، ما أحدث صوتاً حاداً. نظر إليها تسوتومو بطاعة أيضاً، لكن ربطة العنق كانت ستناسب ريوتا بدلاً منه.

هذا النوع من المناسبات يحدث لها مرّة في الشهر أو على أقلّ تعديل مرةً كلّ شهرين. لكن لم يكن ذلك يشير إلى أنها تعبت من تسوتومو أو أنها توقفت عن حبه. كان الأمر ببساطة مباغتاً، ومن دون أن تدري، كانت تبحث عن ربطة عنق تناسب ريوتا. في لحظة مماثلة، يشعر تسوتومو بارتياح طفيف وهو يرى نفسه يتراجع إلى دور المراقب، وبالتالي، يعبّر بحركته عن تعاطف مع شريك السيدة كورومازاكي. إلّا أنّ ذلك، كان يجدد فيه، وفي الوقت عينه، النفور الذي تلهمه إيّاه. فجأة يبدأ تركيزه على ما كان قد تركه يحدث له، حتى الآن، بسبب كسله: أكياس تحت عينيه، لحم رخو في رقبته، كفّاه منتفختان ومتورّمتان كأنه مصاب بمرض ما. بدا له أن الرضا المثير للشفقة الذي تشعر به أثناء سيرها بشجاعة بصحبة هذين الولدين، كان بمثابة بؤس هو المسؤول عنه.

قال ريوتا: "كما ترى، تناسبك هذه أكثر. تلك التي على اليسار ذات الخطوط الصفراء على خلفية سوداء. ألا تجد ذلك؟".

وضع ريوتا، تسوتومو، الذي بدا كأنه يراعي مشاعره، في قلب هذه المحادثة حول ربطات العنق، بشكل مقصود. إلّا أنه كان من الواضح جداً أنّ تورطه جاء من نظام للدفاع عن النفس، كان يضعه في خلفية المشهد بشكل طوعي. أعرب تسوتومو عن اهتمامه الملتوي وعزم على إقناع السيدة كورومازاكي بشراء ربطة عنق لريوتا بأي ثمن.

– بدلة ريوتا زرقاء داكنة، أليس كذلك؟

– أجل، تلك التي كان يرتديها عندما جاء إلى المنزل.

– إذاً، أنا متأكد من أن ربطة العنق هذه سوف تناسبه بشكل مثالي.

– حسناً... وماذا يعني ذلك؟

بدا المعلم الشاب متردداً، لينقر برفق، على الحائط، أسفل النافذة، بطرف السيتا. لم تكن السيدة كورومازاكي، بل هو تسوتومو الذي أظهر انشراحاً برغبته في إهداء هذا الشاب ربطة عنق، في حين لم يكن يرتدي في تلك اللحظة ثياباً غربية. أراد الاندفاع بالدخول إلى المتجر ودفعها من كتفها.

– لا، شكراً لكِ سيدتي. لديّ منها ما يكفي بالفعل.

– لا تتحدث بهذه الطريقة كما لو كنت تقول لا لمندوب شركة مبيعات. أنا من يقدم لك هذه الهدية.

– سيسبّب لي الأمر انزعاجاً حقاً.

رفض الأمر على طريقة رجل اعتاد تلقّي هدايا من نساء. نظر تسوتومو إليه بشكل خفيّ. فعلى الرغم من عمره، بدا خجولاً، الأمر الذي كان له تأثير متناقض في جعل تسوتومو يحمرّ قليلاً من الخجل. ولإخفاء إحراجه، توجّه إلى الجزء الخلفي من المتجر لينظر إلى حقيبة يد حمراء اللون، مصنوعة من الديباج، موضوعة على رفّ مثل سمك الدوراد [الأبراميس] البحري الكبير.

أثناء تناول الطعام، تحدث المعلم الشاب عن الفن، استمع إليه الآخران في صمت. جاء دور تسوتومو ليفقد تركيزه بسبب أحاديث كهذه. تراءى كلام هذا الصبي الوسيم، الحماسي، ممتعاً وبخاصة بالنسبة إلى امرأة: من وقت لآخر، كانت السيدة كورومازاكي تضع الأواني على الطاولة للاستماع إليه بشكل أفضل، كما أن إحدى فتيات الغيشا، ذات وجه مستطيل، والتي كانت تجلس مع حاميها إلى طاولة مقابلة، التفتت إليه مرات عدة. وصل حديثهما إلى آذان تسوتومو: كانت فتاة الغيشا تروي قصة فيلم:

– وبعد ذلك، توفي، هذا الضابط الذي كان عشيقها...

– آه جيد.

– لقد كانت حرباً أيام الرئيس... لينكولن على ما أعتقد.

– يجب أن تكون الحرب الأهلية.

– أجل كيف علمت بذلك؟

راضياً عن سعة اطلاعه، قام حامي فتاة الغيشا بحشو نفسه بالبطاطا المهروسة المغموسة في الصلصة، قبل أن يشرب الماء.

كان الأصدقاء الثلاثة معتدلين في شرابهم، إذ ما من نقطة كحول زيادة، على طاولتهم.

"كيف يفسر المعلّم ريوكان هذا المقطع؟"، سألت السيدة كورومازاكي.

بدأ ريوتا في تقليد المعلم القديم وهو يحمل الشاميزان(3) بشكل وهمي.

(3) آلة موسيقية تقليدية يابانية ذات ثلاثة أوتار، وتسمى أيضاً الأوتار الثلاثة المعطرة. (م.)

– تشين، تسون، تن... كل هذا يتعلق بكيفية ضرب الوتر الثالث في تلك اللحظة بالذات. هذا ما علينا أن ننتبه له...

– آه نعم، في الواقع، لقد فهمت أخيراً. هذا كلّ شيء... هذا هو الشيء. أفهم الآن أنك تقول ذلك. أنا حقاً غبية.

قد يكون هذا الاعتراف، الذي يأتي من امرأة مماثلة، بمثابة إعلان حبّ. قالت ذلك، وهي لا تزال بعد تأكل من لسانها البقري. علقت نقطة من الصلصة البيضاء بشفتيها ذات الابتسامة المشبعة. أصرّت السيدة كورومازاكي، عقب الوجبة التي امتازت بالمزاج الجيد، على إقناع ريوتا بمرافقتهما إلى النُزل.

"سوف نلعب لعبة ورق ثلاثيّة"، اقترحت عليهما، وأضافت: "وسوف نقوم برهانات

خاصة للغاية".

من ناحية أخرى، ألقت نظرة استبدادية على تسوتومو.

– بالمناسبة، ألم تقل إن لديك مهمة لتديرها، يا تسوتومو؟ أراك تخاطر بالعودة إلى النزل في وقت متأخر.

– سأحاول ألّا أتأخر.

عندما غادرا المطعم، أمسكت السيدة كورومازاكي بحماسة بيد تسوتومو، في ظلّ فرع من شجرة سرو مزروع بوعاء عند المدخل، ومن دون أي تبديل في تعابير وجهها، همست بنبرة مستحبة. مثل كلّ النساء اللائي يبدون كتلة واحدة متراصة، كانت تحلم بالمؤامرات. تطايرت الكلمات التي تبادلاها كالشرر.

– انتكاسة؟

– لا تسخر من فضلك. لا يتبدل أي شيء في كونك المفضل لدي. إنها مجرد نزوة عابرة. أنت حبّي المطلق.

– لا بأس، أتفهم الأمر. وتعويضاتي، كم ستكون؟

سرّ تسوتومو لتمكنه من تنفيذ مثل هذا الابتزاز الأولي.

– أتعطينا ثلاث ساعات؟

– يا لها من مهارة! هل ستكفيك ثلاث ساعات؟

– سأتدبر الأمر بنفسي. وإن لم أنجح سأطلب منه أن يقضي الليل عندي.

– وماذا أفعل أنا، هل أتسكع في الدهليز؟

– سأجد حلاً. سأؤجر لك غرفة أخرى.

– حسنا. كم تقترحين عليّ من أجل هذه الساعات الثلاث؟

– ألفا ين. أيناسبك المبلغ؟

– أتمزحين؟ ألفا ين فقط!

– لنقل ألفين وخمسمئة.

– كم أنك حقيرة!

حصل منها أخيراً على ثلاثة آلاف ين كمصروف جيب. غادر ريوتا، الذي استعاد تعبيره الملتبس، كما السيدة كورومازاكي، لكي يتمتع بحرية محدودة بثلاث ساعات. توقف عند سفح لافتة الصيدلية وأشعل سيجارة واستأنف المشي.

سبق أن حدث معه هذا الأمر ثلاثَ أو أربعَ مرّات من قبل. لكنّها المرة الأولى خلال رحلة ما. كانت قوة الدوافع حتمية عند السيدة كورومازاكي بل أكثر سيطرة عمّا نجدها عند الرجل، ولم تكن قادرة على قمع أدنى نزوة تشعر بها. نزوة تنتفخ مثل رغيف الخبز ويصبح من الصعب السيطرة عليها. كان يسترشد دوماً بإخلاصه الميكانيكي، لذا يظهر نفسه على أنه شخص متساهل، مثل عاشق قديم متفهّم للأمور.

اختلط مع حشد شينكيوغوكو في ساعة الشفق هذه. أنا فقط في الثانية والعشرين من عمري وما الذي أقوم به الآن؟ فبينما هي تغوي شخصا آخر، نجدها تدفع لي مقابل أن أذهب بصمت... في العمق، هذا هو جوهر المرأة، لكنها ليست امرأة عادية. لديّ كلّ الحق في أن أجد لنفسي صديقة طبيعية. مع الثلاثة آلاف التي أعطتها لي، صار هناك في جيبي خمسة آلاف ين. لديّ ما يكفي فعلاً لأكثر من مجرد مغازلة إحدى الفتيات المارّات في الشارع...

تذكّر مقطعاً من رواية فرنسية أعاره إيّاها صديق له. كان هذا الوصف النفسي لشاب ولد في الجنوب الفرنسي وقد حصل لتوه على مبلغ 1500 فرنك وبدلة. لقد استخلص المؤلف من ذلك استنتاجاً مثيراً للسخرية:

"باريس ملكه الآن بالكامل!".

ملأته هذه الصيغة الاستفزازية بحسد شرير. يبدو أنه كان لا يزال قادراً على الغيرة. كيوتو ملكه الآن بالكامل! لكن ما الفائدة من قول ذلك؟ عندها أدار بصره إلى

ملصق أحد الأفلام.

كان واحداً من أفلام الغرب الأميركي. وراعي البقر على ظهر خيله وهو يطلق النار. أضيئت الأنوار الصفراء التي تحيط به، فجأة، ما أدى إلى تعتيم الصورة. كان طالب الاقتصاد هذا – المنتمي إلى إحدى جامعات الدرجة الثانية الخاصة، والذي نادراً ما يتابع محاضراتها – يحب هذا النوع من الأفلام، لكنه امتنع عن مشاهدته في هذا المساء، لأنه لم يكن يريد أن يضيع وقته. قام بالالتفاف عند زاوية متجر للهدايا التذكارية يحوي لافتة مزينة بملف تعريفي عن بسكويت ياتسوهاشي ليدخل إلى حانة موجودة في زقاق هادئ مرصوف بالحصى، لتناول القهوة.

خمسة آلاف ين... خمسة آلاف ين... ماذا أفعل بها؟ تنهّد وهو مستعد للبكاء على ذاك المبلغ. كان هناك حوله حشد من الفتيات اللواتي تنفث أجسادهنّ الرطبة عطراً حلواً في أوائل مساء شهر أيار. كانت جميعهن صغيرات ومبتهجات، وبعيدات جداً عن الوحش الآخر... لكن لماذا لم يتمكن من اتخاذ الخطوة الأولى؟ يبدو أن هاتين الفتاتين هناك، بالقرب من النافذة، تتحدثان عنه، وتنظران إليه على نحو خبيث، بل حتى هي نظرات وقحة إلى حدّ ما. كان يكفيه أن ينطلق: من قال إنهما لن تستسلما في غضون ثلاث ساعات؟... لكن ما مصدر تردده هذا؟ صحيح أنه لم يكن على دراية بالمدينة. في أيّ حال، لو شعر حقاً بجوع حقيقي، لكان بإمكانه أن يمسك إحداهما بيدها، مثل شخص أزعر... وأمام هذا التردد تولد لديه انطباع بأن جداراً معادياً كان يرتفع، أن مسافة يائسة تفصله عنهما. لقد غطس في قاع الاضمحلال. وشبابه جُرف بعيداً ووصمت جبهته بالعار... لقد عادت تلك الفكرة التي عذبته في بداية علاقته مع السيدة كورومازاكي إلى الظهور من جديد. ها هو يشعر بوجود حاجز لا يمكن تخطيه بينه وبين المجتمع.

أضاع تسوموتو بهذه الطريقة نصف ساعة، وهو يتصفح بشكل آلي مجلة "لايف" عبر ضوء النافذة الخافت. كان يشعر بالأسف لأنه لم يكن على علم بالتالي: راوده شعور بالعزلة عن المجتمع بسبب هذا الجدار الذي يأتي من حقيقة أنه لم يعرف أي امرأة أخرى غير السيدة كورومازاكي. كان يعتقد أنه شخص ساقط، ولم يكن كذلك

في واقع الأمر. كيف يمكن أن نسمّي ذلك سقطة حين لم يعرف المرء سوى امرأة واحدة فقط؟ بعبارة أخرى، إذا لم يكن يعرف ماذا يفعل بخمسة آلاف ين، فذلك ببساطة لأنه كان بارعاً.

خمسة آلاف ين... اللعنة! لو أرسلتهم إلى والدي! لانهار من البكاء أمام هذا التقوى الآتية من ابنه. ليس من السيئ أن تصبح، لمرة واحدة، بطل قصة عاطفية... لكنه في اللحظة اللاحقة، شعر بالغضب من عاطفته المتناقضة، احمرّ خجلاً لغاية أذنيه.

شعر بالذّنب بسبب امتلاك خمسة آلاف ين، حاول أن يخدع بطالته بالذهاب لمشاهدة فيلم ياباني ممل بشكل عشوائي. بعد ثلاث ساعات، عاد أخيراً إلى النّزل حيث لم يكن هناك أثر لريوتا. صعد إلى غرفة النوم في الطابق الأول. على أحد المفارش، كانت السيدة كورومازاكي تبكي وهي ممدّدة على جنبها.

– ما الذي يحدث لك؟

– آه، تسوتومو...

صرخت وهي تتشبث به.

– يا له من ذلّ! أي ذلّ هو هذا حقاً! لا حقّ له بعد الآن في الدخول إلى منزلي.

وفق روايتها، فقد بدأ بإثمالها بكلمات لطيفة، ثم تظاهر بأن عليه أن يستحمّ وذلك لكي يتسلّل خفيةً. ذهبت إلى الحمام عدّة مرات للتحقق ممّا إذا كان قد انتهى من اغتساله. سمعت صوت طرطشة المياه. إلا أن عملاقاً مخموراً، لا علاقة له به، خرج من صالة الحمّام. وبما أنها كانت مسمّرة عند المدخل، فقد تعرضت لسيل جارف من الاستهزاءات المبتذلة.

– ما الذي لم يعجبه فيّ؟ لماذا كان خائفاً؟ لماذا؟

– لا أعرف

– في أيّ حال، أنتَ لا تفهم أي شيء أبداً. أنتَ مجرّد طفل.

جلست أمام المرآة، حيث ظهر جزء من رقبتها من دون مساحيق تجميل، في

مواجهة تسوتومو. بدأت في وضع المسحوق الأحمر اللون، كما لو كانت تخمد ثأرها. لقد كانت مهمة أكثر دقة لأنها كانت بلا هدف. ظلّ تسوتومو صامتاً. فجأة، فكّر في الخمسة آلاف ين. جلس على السرير وحدّق في وجه السيدة كورومازاكي في المرآة. تولد لديه انطباع بأنّ تحولاً لا يوصف كان يحدث.

اتكأ على كتف السيدة كورومازاكي، الذي بدا ناعماً في المرآة والذي كان الجزء الوحيد الصريح من جسدها.

– أريد أن أطلب منكِ خدمة.

– المزيد من مصروف الجيب؟ لن أسمح لنفسي أن تنخدع.

– ليس هذا، بل على العكس تماماً. أنا من سيعطيكِ مصروف الجيب.

– أنتَ؟ أنتَ من سيعطيني نقوداً؟

قهقهت. تفرست في وجهه لترى ما إذا كان جاداً. كانت نظرتها مثل مهد يتأرجح بلطف في الظلام.

– نعم، لدي خمسة آلاف ين. الليلة، أنا من يدفع لك. فهمتِ؟

– لقد فهمت!

هدل صوتها من المتعة، وعندما التفتت إليه، شكلت ثنيات رقبتها ذقناً مزدوجاً جميلاً.

– أنت مستعدّ لشرائي؟

– نعم

– ستشتريني إذاً؟

شعرت بالإثارة وذرفت دموع الفرح عندما تناولت الخمسة آلاف ين من يد تسوتومو. شعرت بسعادة غامرة لم تشعر بها من قبل.

... هذا ما جاء تسوتومو به ليخبرني قائلاً: "لا أفهم شيئاً عن النساء"، هو، الشاب الذي كان يعرف دائماً امرأة واحدة فقط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موتٌ في منتصف الصيف

(1953)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

" الموت... يؤثر فينا بشكل أعمق تحت هيمنة الصيف البهيّة".

بودلير، الفراديس المصطنعة

لا يزال الشاطئ أ بالقرب من الطرف الجنوبي لشبه جزيرة إيزو، بكراً. يمكنك السباحة فيه. صحيحٌ أن قاع الماء غير مستوٍ وصخري، وأمواجه حادّة قليلاً، بيد أن مياهه نظيفة، وهو ينحدر بهدوء باتجاه البحر، وبشكل عام فإن ظروف السباحة فيه ممتازة. إلى حدّ كبير لأنه منعزل، لا يعاني الشاطئ أ من ضجيج وأوساخ المنتجعات الشاطئية الأقرب إلى طوكيو. إنه على بعد ساعتين بالحافلة من إيتو.

النُّزل الوحيد، أو تقريباً، هو إيراكوزو، الذي يؤجر الشاليهات أيضاً. لا يوجد سوى واحد أو اثنين من هذه البارات المتهالكة التي تزدحم على معظم الشواطئ خلال فصل الصيف. الرمال وفيرة وبيضاء. في منتصف الطريق إلى البحر صخرةٌ مغطاة بأشجار الصنوبر تتدلى على الشاطئ بشكل جيد لدرجة أنك تعتقد أنه تم تثبيتها بواسطة مُنسّق الحدائق. عند ارتفاع المدّ يختفي نصفها تحت الماء.

المنظر جميل، فعندما تجرف الرياح الغربية ضباب البحر، يمكنك رؤية الجُزر في عرضه، أوشيما قريبة جداً، توشيما أبعد قليلاً، وبين الاثنتين جزيرة صغيرة مثلثة تسمى أوتونيشيما. في أقصى شبه جزيرة ناناغو يوجد خليج ساكاي، الذي يشكل جزءاً من سلسلة الجبال عينها، ويغرس جذوره في أعماق البحر؛ وما وراء ذلك، الخليج الذي يطلق عليه اسم قصر تنين ياتسو، ثم خليج تسوميكي، حيث يدور شعاع منارة كل ليلة عند الطرف الجنوبي.

في غرفتها في إيراكوزو، كانت توموكو إيكوتا تأخذ قيلولتها. هي أمّ لثلاثة أطفال، ولا أحد يشك في ذلك حين يراها نائمة. يمكنك رؤية ركبتيها تحت فستانها القطني القصير المستقيم والوردي الشاحب قليلاً. كان لذراعيها المستديرتين ووجهها الناعم وشفتيها المتورمتين قليلاً انتعاشٌ طفولي. ثمة القليل من العرق يسم جبهتها كما الجوف بالقرب من فتحتي أنفها. الذباب يطنّ، والهواء حارق كأنه داخل فرن. ارتفع القطن الوردي وهبط بخفة لدرجة أنه بدا كأنه يجسد قسوة فترة ما بعد الظهيرة.

كان معظم سكان النزل الآخرين على الشاطئ. كانت غرفة توموكو في الطابق الأول. وثمة أرجوحة بيضاء للأطفال تحت نافذتها. ثُبت الكراسي على العشب، فتبعد عن بعضها بعضاً بضع مئات من الأمتار المربعة، والطاولات أيضاً، ووتد لعبة الحلقات(4). كانت الحلقات متناثرة على العشب. ما من أحد في الأفق، ومن وقت لآخر، يختفي طنين النحلة في صوت الأمواج خلف السياج. تعلو أشجار الصنوبر السياج، ثم تفسح بعد ذلك الطريق أمام الرمال والأمواج. ثمة مجرى مياه يمر تحت النُزل، ليشكّل مستنقعاً قبل أن يتدفق إلى المحيط، وقد تناثرت فيه نحو خمس عشرة إوزة كانت تزعق بلا قيود عندما تأكل هناك كلّ يوم بعد الظهر.

(4) لعبة يمارسها الصغار وتتمثل برمي حلقات من على مسافة وعليهم إدخالها في الوتد الصغير. (م.)

كان لتوموكو ولدان، كييو وكاتسوو، وهما يبلغان من العمر ستة أعوام وثلاثة أعوام، وابنةٌ تدعى كيكو، تبلغ من العمر خمسة أعوام. كان الثلاثة على الشاطئ مع ياسويه، أخت زوج توموكو. لم تشعر توموكو بالحرج من أن تطلب من ياسويه بمجالسة الأطفال أثناء قيلولتها.

كانت ياسويه عانساً. وبما أن توموكو بحاجة إلى المساعدة بعد ولادة كيو، تحدثت مع زوجها بالأمر وقررت إحضار ياسويه من القرية. لم يكن هناك أي سبب حقيقي يمنع ياسويه من الزواج. لم تكن بالتأكيد جذابة بشكل خاص، لكنها لم تكن قبيحة أيضاً. كانت قد رفضت عرضاً تلو الآخر، وفي النهاية تجاوزت سنّ الزواج. ولأنها مفتونة بفكرة اتباع شقيقها إلى طوكيو، تلقفت دعوة توموكو. كانت عائلتها ترغب في تزويجها شخصاً بارزاً في المقاطعة.

لم تكن ياسويه مفعمة بالحيوية، لكنها كانت تتمتع بشخصية طيبة للغاية. تتحدثت إلى توموكو، الأصغر منها، مثلما تتحدث إلى أخت كبرى، وكانت دائماً حريصة جداً على الخضوع لها. لقد اختفت تقريباً لهجتها التي تدل على أنها من كانازاوا. وبينما هي تهتم برعاية الأطفال والبيت، تابعت ياسويه دروساً في الخياطة فكانت تصنع ملابسها بنفسها بالطبع، وكذلك ملابس توموكو والأطفال. كانت تأخذ

كراسة رسم لتنقل أشكال الأزياء الجديدة المعروضة في واجهات المحلات بالأحياء الأنيقة، وقد حدث مراراً أن نظرت إليها البائعات، حتى إنهنّ وجّهن لها بعض اللوم.

كانت تجلس على الشاطئ ببدلة سباحة خضراء أنيقة للغاية. كانت الشيء الوحيد الذي لم تصنعه، وقد اشترته من متجر كبير. بدت فخورة جداً ببشرتها البيضاء التي بالكاد تبدو مدبوغة. وحين تخرج من الماء، تهرع دائماً إلى تحت مظلتها. كان الأطفال على حافة المياه يبنون قلعة من الرمال، وكانت ياسويه تستمتع بتغطية ساقها البيضاء بالرمال الرطبة. شكّل الرمل، الذي جفّ على الفور، رسماً داكناً تتلألأ فيه بقايا أصداف. قامت ياسويه بتنظيفها بخفة، لكنها شعرت فجأة بالقلق من استمرارها. حشرة صغيرة شبه شفافة تخرج من الرمال وتهرب.

بسطت ساقيها واستندت إلى الخلف على يديها، حدقت ياسويه إلى البحر. تمايلت كتل ضخمة من السحب، عملاقة ومهيبة بسلام. كأنها كانت تمتص كلّ الضوضاء هنا في الأسفل، حتى صوت البحر.

كانت ذروة الصيف، وثمة غضب في أشعة الشمس.

سئم الأطفال من القلعة الرملية. ألقوا بأنفسهم وهم يركضون ليجعلوا الماء يتدفق من البرك الصغيرة على حافة المدّ. استيقظت ياسويه من عالمها الخاص الهادئ الذي كانت قد انزلقت إليه، وركضت وراءهم.

لكنهم لم يفعلوا أي شيء خطير. كانوا خائفين من هدير الأمواج. ثمة مياه قليلة راكدة خلف الخط حيث كانت تسقط الأمواج. كانت المياه تغمر كييو وكيكو، اللذين يسيرا يداً بيد، لغاية خصريهما، وعيونهما البراقة تتيبس على الماء عندما شعرا بتحرّك الرمال تحت أقدامهما العارية.

"كأن هناك من يسحبنا"، قال كييو لشقيقته.

اقتربت ياسويه منهما ومنعتهما من الذهاب بعيداً. أشارت لهما إلى كاتسوو. عليهما أن لا يتركاه وحيداً، بل أن يذهبا ويلعبا معه. لم يصغيا إليها. كانا واقفين يداً بيد الآخر، سعيدَين، وينظران إلى بعضهما بابتسامة. كان لديهما سرّ: الرمال التي يشعران

بها تتحرك تحت أقدامهما.

كانت ياسويه تشعر بالخوف من الشمس. نظرت إلى كتفيها وصدرها وتذكرت الثلج في كانازاوا. ضغطت على حلقها قليلاً، وهي تبتسم لتشعر بالدفء. كانت أظفارها طويلة جداً ومتسخة بالرمال، سوف تقوم بتقليمها عندما تعود إلى غرفتها.

لم تعد ترى كييو وكيكو. لا بدّ أنهما عادا إلى الشاطئ.

بيد أن كاتسوو كان وحده. أبان تكشيرة غريبة ولوّح لها بيده.

بدأ قلبها ينبض بعنف. نظرت إلى الماء عند قدميها. كان لا يزال ينسحب إلى الوراء. وفي الرغوة على بعد نحو مترين، تدحرج جسم أسمر اللون صغير إلى ما لا نهاية. شاهدت قميص كييو الأزرق الداكن للحظة.

نبض قلبها بشكل أسرع. تقدمت نحو الجسد كما لو كان من الضروري القتال للخروج من الخطر. انتفخت فوقها موجة تقدمت أكثر بقليل من المعتاد، وتكسرت أمام عينيها. لكمتها في صدرها. أسقطتها في الماء. أصيبت بنوبة قلبية.

بدأ كاتسوو بالبكاء، فركض شاب لم يكن بعيداً. ركض آخرون أيضاً، عبر برك المياه الصغيرة. علت المياه حول أجسادهم العارية المظلمة.

رآها شخصان أو ثلاثة وهي تسقط. لم يهتموا بهذا الأمر. سوف تنهض مجدداً. ولكن في مثل هذه الأوقات، ثمّة دائماً بعض القلق. وأثناء الجري بدا لهم أن هذا السقوط كان مثيراً للقلق.

حملوا ياسويه فوق الرمال الحارقة؛ عيناها مفتوحتان وأسنانها مصرورة وبدا أنها تحدق برعب في شيء أمامها. قاس أحد الرجال نبضها. لم يكن هناك أي شيء.

"إنها تقيم في إيراكوزو". تعرّف عليها أحدهم.

يجب مناداة مدير الفندق. ثمة فتى قروي، مصمم على عدم ترك هذه المهمة الهامة لأي شخص آخر، هرع فوق الرمال الساخنة.

وصل المدير. كان في الأربعينات من عمره. يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً فقد

شكله، وكان بينهما حزام من الفلانيل. احتج قائلاً: يجب تقديم الإسعافات الأولية في الفندق. اعترض أحدهم. ومن دون انتظار نتيجة المناقشة، حمل شابان ياسويه وحملاها بعيداً. كانت الرمال الرطبة التي كانت مستلقية عليها تحمل شكلاً إنسانياً.

تبعهم كاتسوو وهو يصرخ. لاحظه شخص ما وأمسك به.

تمّ إيقاظ توموكو من قيلولتها. هزّها المدير، الذي يعرف وظيفته، بلطف. نظرت إلى الأعلى وسألت ما كانت عليه المشكلة.

– السيدة التي تُدعى ياسويه.

– هل حدث شيءٌ ما لياسويه؟

– لقد قدمت لها الإسعافات الأولية، وسيصل الطبيب حالاً.

قفزت توموكو وخرجت مع الرئيس. كانت ياسويه مستلقية على العشب بالقرب من الأرجوحة، وفوقها رجل شبه عارٍ يقدم لها تنفساً اصطناعياً. كان بالقرب منها كومة من القش وصناديق برتقال مطوية، ورجلان يبذلان قصارى جهدهما لإشعال النار، لتتبخّر ألسنة اللهب على الفور على شكل دخان. كان الجو عاصفاً في الليلة الماضية والخشب لا يزال مبتلاً. قام رجل ثالث بإبعاد الدخان عن وجه ياسويه.

وبينما رأسها ملقى إلى الخلف، بدت ياسويه تتنفس تماماً. كانت الشمس التي تتسلل عبر الأشجار تجعل العرق يتلألأ على ظهر الرجل المعتم الذي يعتليها. كانت ساقا ياسويه البيضاوان، الممتدتان على العشب، مستديرتين وطبشوريتين. بدتا مهملتين ومنفصلتين تماماً عن المعركة التي كانت تدور في الأعلى.

ركعت توموكو على العشب.

"ياسويه، ياسويه!".

هل سُتنقذ ياسويه؟ لِمَ حدث هذا؟ ماذا الذي يمكن أن تقوله إلى زوجها؟ كانت تبكي وتتلعثم وتقفز من سؤال إلى آخر. فجأة التفتت بحيوية إلى الرجال من حولها. أين الأطفال؟

"انظر. ها هي أمك". صياد مسن يحمل كاتسوو مرعوباً بين ذراعيه. نظرت توموكو إلى الطفل وأومأت برأسها بفضل إلى الصياد.

وصل الطبيب وواصل عملية التنفس الصناعي. احترق خداه من وهج النار، وبالكاد عرفت توموكو ما كان يفكر فيه. كانت نملة تركض على وجه ياسويه. سحقتها توموكو وألقت بها بعيداً. قفزت نملة أخرى من الشعر إلى الأذن. سحقتها توموكو أيضاً. بدأت في سحق النمل.

استمرّ التنفس الاصطناعي أربع ساعات. أخيراً، لوحظت أعراض تيبس الموتى، فاستسلم الطبيب. غُطي الجثمان بملاءة ونُقل إلى الطابق الثاني. كانت الغرفة مظلمة. ترك رجل الجسد وركض ليضيء الإنارة.

شعرت توموكو بالإرهاق وقد استولى عليها الإحساس بنوع من الفراغ الذي لا يخلو من الحلاوة. لم تكن حزينة. فكّرت في الأطفال.

– الأطفال؟

– في الطابق السفلي، في غرفة اللعب مع جينغو.

– الثلاثة جميعاً؟

– الثلاثة جميعاً؟!

نظر الرجال بعضهم إلى بعض.

دفعهتم توموكو بعيداً وركضت إلى الطابق السفلي. جلس الصياد، جينغو، مرتدياً كيمونو قطنياً، على الأريكة وكان ينظر إلى كتاب مصور مع كاتسوو الذي كان يرتدي قميصاً للبالغين على سروال السباحة. كان كاتسوو يفكر في شيء آخر. لم يكن ينظر إلى الكتاب.

مع دخول توموكو، توقف سكان الفندق الذين علموا بالمأساة عن التلويح بمراوحهم للتحديق فيها.

كادت أن تلقي بنفسها على كاتسوو.

"كييو وكيكو؟" سألت بقسوة.

نظر إليها كاتسوو بخوف. "كييو وكيكو... أصبحا فقاعات"، وبدأ بالنحيب.

ركضت توموكو على الشاطئ حافية القدمين. لدغتها إبر الصنوبر وهي تمشي في الأجمة. كان المدّ مرتفعاً، وكان عليها أن تتسلق الصخرة للوصول إلى الشاطئ. كانت الرمال بيضاء أمامها. يمكننا أن نرى بعيداً في الغسق. بقيت هناك مظلة عليها ألواح مربعة صفراء وبيضاء. كانت أغراضها.

لحق بها الآخرون على الشاطئ. ركضت في المد من دون أن تلاحظ أي شيء. عندما حاولوا منعها، دفعتهم بغضب.

"ألا ترون؟ ثمّة طفلان هناك".

لم يسمع الجميع ما قاله جينغو. ظنوا أن توموكو مجنونة.

***

كان من الصعب التصديق أنه خلال الساعات الأربع الكاملة التي تمّ فيها رعاية ياسويه، لم يفكر أحد في الطفلَين الآخرين. اعتاد الناس في الفندق رؤية الأطفال الثلاثة معاً. ومهما كانت والدتهم مستاءة، كان من الغريب ألا يحذرها شيء بوفاة طفليها.

ومع ذلك، في بعض الأحيان، تؤدي مثل هذه الحوادث إلى نوع من رد الفعل الجماعي الذي يسمح للجميع فقط بالتفكير البسيط نفسه. ليس من السهل الابتعاد. ليس من السهل الاختلاف. عندما استيقظت من غفوتها، سجلت توموكو ببساطة ما قاله لها الآخرون، ولم تفكر في طرح الأسئلة.

طوال الليل، كانت الحرائق تُشعَل على طول الشاطئ. كل نصف ساعة كان الشباب يغوصون للبحث عن الجثتين. كانت توموكو معهم على الشاطئ. لم تستطع النوم، ربما لأنها نامت كثيراً بعد ظهر ذلك اليوم.

بناءً على نصيحة الدرك، لم تُرمَ الشِّباك في صبيحة اليوم التالي.

كانت الشمس تشرق على نقطة اليابسة إلى يسار الشاطئ، وقد لفح نسيم الصباح وجه توموكو. كانت تخشى ضوء النهار. بدا لها أنه مع النور ستكتشف كل الحقيقة، وأن المأساة ستكون حقيقية لأول مرة.

"ألا تعتقدين أنك يجب أن ترتاحي؟" قال أحد الرجال الأكبر سناً. "إذا وجدنا أي شيء سوف نتصل بك. يمكنكِ الوثوق بنا".

قال الرئيس الذي احمرت عيناه بسبب قلة النوم: "أرجوكِ، من فضلك. يكفي ما تعرّضتِ له من مصائب. ماذا سيقول زوجك إذا مرضت؟".

كانت توموكو تخشى رؤية زوجها. إذ ستجد فيه قاضي تحقيق. لكن عليها أن تراه. كان الوقت يقترب، وبدا لها أنها ترى كارثة أخرى تقترب.

سرعان ما استجمعت كل شجاعتها لإرسال برقية. وقد منح لها الأمر ذريعة لمغادرة الشاطئ. بدأت تشعر وكأنها تقود كل الغواصين.

استدارت عندما غادرت. كان البحر هادئاً. سطع ضوء فضي بشكل ساطع بالقرب من الشاطئ. كانت الأسماك تقفز. بدت مخمورة بالفرح. من الظلم أن تكون توموكو حزينة إلى هذه الدرجة.

كان زوجها ماسارو إيكوتا يبلغ من العمر خمسةً وثلاثين عاماً. تخرّج من جامعة طوكيو في الدراسات الأجنبية وعمل قبل الحرب في شركة أميركية. كان يجيد اللغة الإنكليزية، ويعرف مهنته جيداً. كان أكثر قدرة مما توحي به طرقه الهادئة. هو الآن مدير المكتب الياباني لشركة سيارات أميركية، لديه سيارة شركة تحت تصرفه، وتشكل الدعاية جزءاً من ذلك، يكسب 150 ألف ين شهرياً. يعرف أيضاً كيف يتصرف ليخصص لنفسه سرّاً بعض الممتلكات، لذا عاشت توموكو وياسويه، مع خادمة لرعايتهما، في يُسر وراحة. لم تكن هناك أي حاجة لتفقد العائلة ثلاثة أشخاص دفعةً واحدة.

أرسلت توموكو برقية لأنها لم تكن ترغب في التحدث إلى ماسارو على الهاتف. كما هي الحال في الضواحي، بعث مكتب البريد على الفور بالرسالة هاتفياً، فجاءت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكالمة في الوقت الذي كان فيه ماسارو ذاهباً إلى العمل. اعتقد أنها كانت مكالمة عادية، رفع السماعة بهدوء.

"لدينا برقية عاجلة من الشاطئ أ" قالت المرأة من مكتب البريد. بدأ ماسارو يقلق. "سوف أقرؤها لك. هل تسمعني؟ ماتت ياسويه. كييو وكييكو مفقودان. توموكو".

– أيمكنك أن تعيدي القراءة من فضلك؟

جاءت القراءة الثانية مشابهة: "ماتت ياسويه. كييو وكييكو مفقودان. توموكو". كان ماسارو غاضباً. كان الأمر كما لو أنه تلقى فجأة إعلان إقالته، من دون سبب معقول.

اتصل على الفور بمكتبه ليقول إنه لن يأتي. فكر في القيادة إلى شاطئ أ. لكن الطريق كانت طويلة وخطرة، ولم يكن متأكداً من أنه سوف يقود سيارته بشكل جيد، لكونه يشعر بحالة من الانزعاج. إلى جانب ذلك، فهو قد تعرض لحادث مؤخراً. قرّر أن يستقل القطار إلى إيتو، ومن هناك سيارة أجرة.

العملية التي من خلالها يجد الحدث غير المتوقع طريقه إلى الوعي غريبة ودقيقة. ماسارو، الذي شرع في الحادث دون أن يعرف حتى طبيعة الحادث، اهتمّ بجلب مبلغ جيد من المال. فالحوادث تتطلّب المال.

استقل سيارة أجرة إلى محطة طوكيو. لم يشعر بأي شيء يمكن أن يسميه حقاً العاطفة. بدلاً من ذلك، شعر بما يشعر به ضابط شرطة عند زيارته لمسرح الجريمة، حين يكون أقل اهتماماً بالتخيّل من الاستنتاج. ارتجف بفضول لكي يعرف المزيد عن حقيقة كانت تهمّه بشدة.

كان بإمكانها الاتصال هاتفياً. كانت خائفة من التحدث معي. وبحدسه كزوج خمّن الحقيقة. لكن في أي حال، فإن المشكلة الأولى هي أن أذهب وأرى بنفسي.

نظر عبر الباب وهم يقتربون من وسط المدينة. كانت الشمس الصباحية لمنتصف الصيف أكثر إبهاراً بسبب الحشود ذات القمصان البيضاء. ألقت الأشجار على طول الطريق بظلال كثيفة فوق الرأس مباشرة، وعند مدخل الفندق كانت المظلة

المبهرجة ذات اللونين الأحمر والأبيض ممدودة، كما لو كانت لدعم وزن المعدن الثقيل للشمس. فيما الأرض التي نُكِشت حديثاً، حيث تم إصلاح الشارع، جافة ومغبرة بالفعل.

كان العالم من حوله كما كان عليه دائماً. لم يحدث شيء، وكان بإمكانه محاولة تصديق أنه لم يحدث له شيء أيضاً. استولى عليه انزعاج صبياني. ففي مكان مجهول، حادثة لا علاقة له بوقوعها، عزلته عن العالم.

من بين كل هؤلاء الركاب لم يكن هناك من هو حزين مثله. يبدو أن التفكير في الأمر يضعه في مستوى مختلف عن ماسارو كل يوم، إما في الأعلى وإما في الأسفل، كيف بإمكاننا أن نعرف. لقد كان شخصاً مميزاً. شخصاً معزولاً.

ربما يشعر الرجل الذي يحمل وحمة كبيرة على ظهره أحياناً بالحاجة إلى الصراخ: "اسمعوا جميعاً. أنتم لا تعرفون. لكن لدي وحمة حمراء كبيرة على ظهري".

شعر ماسارو بأنه ينادي الركاب الآخرين: "اسمعوا جميعاً. أنتم لا تعرفون ذلك، لكنني فقدت أختي واثنين من أطفالي الثلاثة".

خانته شجاعته. لو على الأقل تمّ إنقاذ الأطفال... بدأ في البحث عن طرق أخرى لتفسير البرقية. ربما افترضت توموكو، المنزعجة من وفاة ياسويه، أن الأطفال ماتوا عندما فُقدوا فقط. ألا يمكن أن تكون هناك في هذه اللحظة بالذات برقية ثانية تنتظره في المنزل؟ كان ماسارو مأخوذاً تماماً بمشاعره، كما لو أن الحدث نفسه كان أقل أهمية من ردّ فعله. وأعرب عن أسفه لعدم اتصاله على الفور بإيراكوزو.

***

تألّقت الساحة أمام محطة إيتو تحت شمس الصيف العالية. بالقرب من موقف سيارات الأجرة، كان هناك مكتب صغير، ليس أكبر من بوابة الحراسة. كان ضوء الشمس في الداخل لا يرحم، وكانت أوراق الأخبار المعلقة على الجدران صفراء وملتوية.

– كم التسعيرة إلى الشاطئ أي؟

– ألفا ين.

كان الرجل يرتدي قبعة سائق، وكانت حول رقبته منشفة. "إذا لم تكن في عجلة من أمرك، يمكنك توفير المال عن طريق ركوب الحافلة. ستنطلق في غضون خمس دقائق" أضاف قائلاً، ربما بدافع اللطف، أو لأن القيام بالرحلة يتطلب الكثير من الجهد.

– أنا على عجلة من أمري. هناك شخص ما في عائلتي مات للتو هناك.

– أوه! أنت من أقرباء الأشخاص الذين غرقوا على الشاطئ أ؟ يا للأسف. طفلان وامرأة في الوقت عينه على ما يبدو.

شعر ماسارو بدوار تحت الشمس الحارقة. لم يقل للسائق أي كلمة إضافية أخرى حتى وصل إلى الشاطئ أ.

لم يكن المنظر على طول الطريق يملك شيئاً ملحوظاً. صعدت سيارة الأجرة جبلاً مغبراً أولاً، ثم نزلت واحداً آخر. نادراً ما كان البحر يُرى في الأفق. عندما مرّوا بسيارة أخرى على طريق ضيقة بشكل خاص، اصطدمت فروع الأشجار بالنافذة نصف المفتوحة، مثل طيور مذهولة، ونشرت بوحشية الغبار والرمل على سروال ماسارو المكوي جيداً.

لم يستطع ماسارو أن يقرر كيفية الاقتراب من زوجته. لم يكن متأكداً من وجود طريقة "طبيعية" للتقرب منها، لأنه لا يبدو أنّ أيّاً من المشاعر التي يمرّ بها مناسبة. ربما كان هذا طبيعياً.

تجتاز سيارة الأجرة بوابة الإيراكوزو القديمة السوداء. كانت تسير في الممرّ عندما جاء المدير وهو يركض مصدراً صوت قرقعة قباقيب. قام ماسارو بسحب محفظته تلقائياً.

"أنا إيكوتا".

"مصيبة كبيرة"، قال المدير ينحني بعمق. بعد أن دفع للسائق، شكر ماسارو المدير

وأعطاه ورقة بقيمة ألف ين.

احتل توموكو وكاتسوو غرفة مجاورة للغرفة التي كان فيها نعش ياسويه. كانت الجثة مغطاة بالجليد الجاف الذي استقدم من إيتو، وسيتم حرقها الآن بعد وصول ماسارو.

تخطى ماسارو المدير وفتح الباب. قفزت توموكو، التي استلقت لتأخذ قيلولة، عند سماعها الضوضاء. لم تنم. كان شعرها متشابكاً وترتدي كيمونو قطنياً مجعلكاً. مثل المحكوم عليها، شدّت الكيمونو على جسدها وركعت أمامه بطاعة. كانت لديها حركات سريعة بشكل غير عادي، كأنها أعدتها مسبقاً. نظرت إلى زوجها وانفجرت بالبكاء.

لم يكن يريد أن يراه المدير وهو يضع يده على كتف زوجته ليريحها. سيكون ذلك أسوأ من السماح باكتشاف أسرار الكوة الأكثر حميمية. خلع ماسارو سترته وبحث بنظره عن مكان لتعليقها.

رأته توموكو. أخذت حامل معطف أزرق اللون من الخزانة، وعلقت عليه السترة المبللة بالعرق. جلس ماسارو إلى جانب كاتسوو، الذي أيقظه بكاء والدته، والذي كان لا يزال مستلقياً، يراقبهما. أخذه ماسارو في حضنه، ولم يبدِ أي مقاومة كأنه دمية. كيف يمكن للأطفال أن يكونوا صغاراً جداً؟ كان الأمر كما لو كان يحمل لعبة.

ركعت توموكو وهي تدمع في زاوية من الغرفة.

قالت: "كلّ هذا بسببي". كانت تلك هي الكلمات التي أراد ماسارو سماعها.

خلفهما، كان المدير يدمع أيضاً. "أعلم أن هذا ليس من شأني، سيدي، لكن من فضلك لا تلم السيدة إيكوتا. حدث كل هذا أثناء غفوتها، فلا شيء بسببها".

شعر ماسارو أنه سمع أو قرأ ذلك في مكان ما من قبل.

"أعرف، أعرف".

امتثالاً للقواعد، قام، والطفل بين ذراعيه، وذهب إلى زوجته، ووضع يده برفق

على كتفها. جاءته هذه البادرة بسهولة.

عادت توموكو لتبكي بمرارة أكبر.

في اليوم التالي غثرّ على الجثتين. اكتشفهما غواصو الدرك أخيراً تحت طرف شبه الجزيرة. كانت حشرات البحر قد قضمتهما، وكان هناك اثنان منها أو ثلاثة في كل فتحة منخر.

بطبيعة الحال، مثل هذه الأحداث هي خارجة عن المألوف، ومع ذلك ما من ظروف لا يشعر فيها الناس بأنهم مجبرون على الالتزام بالعادات. لم تنسَ توموكو وماسارو أياً من الردود أو أياً من هدايا الشكر التي تفرضها العادات.

يمثل الموت دائماً مشكلة تنظيمية. كانا مشغولين بشكل محموم باستمرار. يمكن القول إن ماسارو على وجه الخصوص، بصفته رب الأسرة، لم يكن لديه دقيقة ليخص حزنه بها. أما بالنسبة إلى كاتسوو، فقد بدا له أن هناك احتفالات متواصلة يلعب فيها البالغون أدوارهم.

في أي حال، وصلا إلى نهاية هذه القصص المعقدة. بلغت القرابين الجنائزية ثمناً كبيراً. يتم تقديم أموال قرابين الجنازة دائماً بشكل أكثر سخاءً عندما يكون رب الأسرة، الذي لا يزال بإمكانه العمل، هو الناجي، أكثر مما يكون عليه عندما يتعلق الأمر بجنازته.

بطريقة ما، كان على ماسارو وتوموكو أن يجدا الشجاعة للقيام بما هو ضروري. لم تستطع توموكو فهم كيف يمكن أن يوجد مثل هذا الألم الجنوني والكثير من الاهتمام بالتفاصيل في الوقت عينه. وكان من المدهش أيضاً أنها تستطيع أن تأكل كثيراً من دون أن تلاحظ المذاق.

أكثر ما كانت تخشاه رؤية والذي ماسارو. وصلا من كانازاوا في الوقت المناسب للجنازة. أجبرت نفسها على أن تكرر: "كل هذا خطئي"، وشكت على سبيل التعويض لوالديها.

ولكن لمن يحزنون أكثر؟ ألم أفقد أنا طفلين أيضاً؟ كلهم هنا يتهمونني. إنهم

يلومونني على كل شيء، وعليّ أن أعتذر لهم. جميعهم ينظرون إليّ وكأنني الخادمة الصغيرة الطائشة التي أسقطت الطفل في النهر. لكنها كانت ياسويه. ياسويه محظوظة بوفاتها. ألا يرون من هي الضحية؟ أنا أم فقدت للتوّ طفلين.

– أنت غير عادلة. من يتهمك؟ ألم تكن والدته تبكي عندما قالت إنها تشعر بالأسف عليك أكثر من غيرها؟

– كانت تدّعي ذلك...

كانت توموكو غير سعيدة تماماً. شعرت كأنها شخص غير مؤهّل، محكوم عليه بالغموض، شخص تجاهلوا مزاياه الحقيقية. بدا لها أن مثل هذه الأحزان الشديدة يجب أن تجلب معها امتيازات خاصة وامتيازات غير عادية. تحول جزء من استيائها ضدها، لأنها قدمت مثل هذه الأعذار البغيضة إلى حماتها. ركضت لوالدتها عندما ساد غضبها، مثل الحكة في جميع أنحاء جسدها.

لم تكن تعرف ذلك، لكنها في الحقيقة كانت يائسة من فقر المشاعر الإنسانية. هل كان من المنطقي أنه لم يكن هناك شيء نفعله سوى البكاء عند وفاة عشرة أشخاص، كما نبكي من أجل شخص واحد؟

تساءلت توموكو لماذا لم تنهَز. بدا غريباً أنها لم تنهَز، وهي واقفة لأكثر من ساعة في ملابس الحداد في حرارة منتصف الصيف. كانت تشعر من وقت لآخر بالإعياء، وما كان ينقذها في كل مرة هو نفحة الرعب الجديدة أمام الموت. قالت وهي توجه وجهها المبلل بالدموع إلى والدتها: "أنا أقوى ممّا كنت أتصوّر".

عندما تحدث عن ياسويه مع والديه، بكى ماسارو على أخته التي ماتت عانساً، استاءت توموكو منه قليلاً أيضاً.

ما الذي يهمّه أكثر؟ أرادت أن تسأل، ياسويه أم الأطفال؟

لم يكن هناك شك في أنها كانت متيبسة ويقظة. لم تكن قادرة على النوم ليلة السهرة على الموتى، حتى مع علمها أنه يجب عليها أن تنام. ومع ذلك لم تكن تشعر حتى بظل الصداع النصفي. كان عقلها صافياً ومتوتراً.

شعر الزوّار بالقلق عليها، وأحياناً كانت تجيبهم باقتضاب: "لا داعي للتفكير بي. لا يهمّ سواء كنت حيّة أم ميتة".

هجرتها أفكار الانتحار أو الجنون. سيكون كاتسوو أفضل سبب لمواصلة العيش لبعض الوقت. لكنها اعتقدت في بعض الأحيان أن الأمر مجرد نقص في الشجاعة، أو ربما تخفيف الحزن، وعلى أي حال، فكرت، وهي تنظر إلى كاتسوو الذي تقرأ له النساء الحزينات، أنه من الجيد أنها لم تقتل نفسها. في تلك الأمسيات كانت تتمدد بين ذراعي زوجها، وبعينين واسعتين مثل عيني الأرنب على دائرة الضوء من مصباح السرير، تكرر بلا نهاية، مثلما يكرر المرء نداءً: "لقد كنت مخطئة. هذا خطئي. كان يجب أن أعرف منذ البداية ألا أترك الأطفال الثلاثة مع ياسويه".

كان صوتها أجوف مثل صوت يبحث عن صدى في الجبال.

يعرف ماسارو ما يعنيه هذا الشعور المهووس بالمسؤولية. كانت تنتظر العقاب بطريقة ما. وكأنها كانت جائعة لذلك.

بعد احتفالات اليوم الرابع عشر، عادت الحياة إلى طبيعتها. حثّهم الجميع على الذهاب إلى مكان ما للراحة، لكن الجبل وشاطئ البحر أشعرا توموكو بالخوف أيضاً. كانت مقتنعة أن المصائب لا تأتي فرادى.

في إحدى الأمسيات قرب نهاية الصيف، ذهبت توموكو إلى المدينة مع كاتسوو. كان لديها موعد لتناول العشاء مع زوجها عندما ينهي عمله.

لم يكن يُرفض أي شيء لكاتسوو. كان لطف والده ووالدته محرجاً. لقد تعاملا معه كما لو كان دمية زجاجية، وكان مجرد عبوره الشارع قضية كبيرة. كانت والدته تصوّب نظرتها إلى السيارات والشاحنات المتوقفة عند الإشارة الحمراء، فتندفع للعبور، وهي ممسكة بيده الصغيرة بإحكام.

في واجهات المحلات كانت أحدث ملابس السباحة لهذا الموسم تعنفها. كان عليها أن تنظر بعيداً عن المايوه الأخضر الذي يشبه مايوه ياسويه. ثم تساءلت عما إذا كان للمانيكان رأس. يبدو أنه لم يكن كذلك، مع وجه مثل وجه ياسويه الذي لا حياة

له تماماً، والعينين المغمضتين تحت تشابك الشعر المبلل. أصبحت جميع العارضات أجساداً غارقة.

لو أن الصيف يرغب في أن ينتهي فقط. كلمة "الصيف" نفسها جلبت معها أفكار الموت المتقيحة. وبدت لها حرارة شمس المساء قيحية.

وبما أنها وصلت قبل الموعد بقليل، أخذت كاتسوو إلى متجر كبير. كانا هناك قبل نحو نصف ساعة من موعد الإغلاق. أراد كاتسوو إلقاء نظرة على الألعاب فصعدا إلى الطابق الثالث. سرعان ما مرّا بألعاب الشاطئ. كانت الأمهات يبحثن بشكل محموم في كومة من ملابس السباحة للأطفال المعروضة للبيع. كانت امرأة تحدق من النافذة إلى سروال سباحة أزرق داكن، بينما شمس الظهيرة تلعب على الضفيرة. قالت توموكو لنفسها إنها تبحث بشغف عن كفن.

عندما اشترى لعبة البناء الخاصة به، أراد كاتسوو الذهاب إلى السطح. كان الجو بارداً في باحة اللعبة، وثمة نسيم قوي نسبيا ياتي من المرفأ حرّك الستائر.

Telegram:@mbooks90

من خلال السياج الوقائي، نظر توموكو عبر المدينة إلى جسر كاتشيدوكي، ومستودعات تسوكيشيما، وسفن الشحن الراسية في الميناء.

أفلت كاتسوو يده لرؤية قفص القرود. تبعته توموكو. ربما بسبب الريح، كانت رائحة القرد عنيفة. نظر القرد إليهما، وهو يجعد جبينه. عندما قفز من فرع إلى آخر، كانت إحدى يديه ملتصقة على وركه، لاحظت توموكو على جانب وجهه الصغير العجوز أذناً قذرة حيث تظهر الأوردة الحمراء. لم تنظر قطّ من قبلُ إلى حيوان باهتمام شديد.

بالقرب من القفص كانت هناك بركة. تم إغلاق نافثة الماء في وسطها. كانت هناك كتل من الرجلة حول حوافي القرميد، كان يتعثر بها طفل من عمر كاتسوو. لا يُرى والداه في أي مكان.

"آمل في أن يسقط. أتمنى أن يسقط ويغرق".

اتبعت توموكو الخطوات غير المؤكدة. الطفل لم يسقط. عندما تجول مرة واحدة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لاحظ نظرة توموكو وانفجر ضاحكاً بفخر. توموكو لا تضحك. بدا الأمر كأن الطفل كان يضحك عليها.

أمسكت بيد كاتسوو وغادرت السطح بسرعة.

أثناء العشاء، وبعد صمت طويل إلى حدّ ما، تحدثت توموكو. "كم أنت هادئ، في أي حال. كأنك لا تبدو حزيناً على الإطلاق".

تفاجأ ماسارو، فأدار رأسه ليرى ما إذا كان أي شخص قد سمع شيئاً.

– ألا تفهمين؟ أنا فقط أحاول أن أريحك.

– لا داعي لذلك.

– أتظنين ذلك؟ وأثر ذلك في كاتسوو؟

– في أي حال، لا أستحقّ أن أكون أمّاً.

وهذا ما أفسد العشاء.

كان ماسارو يميل إلى التراجع أكثر فأكثر أمام حزن زوجته. فالرجل مجبر على العمل، يمكن أن يشتت ذلك عمله. بينما كانت توموكو تداري حزنها، كان على ماسارو أن يتعامل مع رتابة ذلك الحزن عندما يعود إلى المنزل، لذلك بدأ في العودة إلى المنزل متأخراً كلّ ليلة.

أحضرت توموكو خادمة عملت عندها منذ فترة طويلة وأعطتها كل ملابس وألعاب كييو وكيكو.

في صباح أحد الأيام، استيقظت توموكو متأخرة قليلاً عن المعتاد. كان ماسارو، الذي شرب مرة جديدة في الليلة السابقة، ملتفاً على جانبه من السرير الكبير. كانت لا تزال هناك رائحة كحول ثقيلة. كان صوت الرفاصات يعلو حين يستدير أثناء نومه. وبينما كان كاتسوو بمفرده الآن، جعلته توموكو ينام في غرفة نومهما بالطابق العلوي، على الرغم من أنها كانت تعلم بطبيعة الحال أن هذا أمرٌ غير مرغوب فيه. نظرت إلى وجه الطفل النائم عبر ناموسية سريره البيضاء كما عبر ناموسية كاتسوو.

دائماً كان يعبس قليلاً عندما ينام.

مدّت توموكو يدها من الناموسية لسحب حبل الستارة. كانت خشونة الحبل تحت غطاء القنب ممتعةً لليد المتعرقة. فتحت الستائر قليلاً. غمر الضوء شجيرة خشب الصندل من الأسفل، فتداخلت الظلال، وشعرت خصلات الأوراق الكبيرة بنعومة أكثر من المعتاد. كانت العصافير تزقزق بصوت عالٍ. كانت تستيقظ وهي تزقزق كل صباح ويبدو أنها كانت تصطف لتركض عبر المزاريب. يمر ختم قوائمها الصغيرة المشوش من أحد طرفي المزراب إلى طرفه الآخر، ويعود. كانت توموكو تبتسم وهي تستمع إليها.

كان صباحا مباركاً. بركة بلا سبب لكنها ملموسة. كانت مستلقية بهدوء ورأسها لا يزال على الوسادة. ينتشر شعور بالسعادة في جميع أنحاء جسدها.

فجأة فتحت فمها. كانت تعرف سبب شعورها بالسعادة. كانت هذه هي المرّة الأولى التي لا تحلم فيها بالطفلين. كانت تحلم بهما كل ليلة، في الليلة الماضية، لا. كان لديها حلمٌ صغير تافه وممتع.

لقد نسيت بسرعة إذاً، فقد بدا لها أن قلة حنانها مروعة. ذرفت الدموع لتطلب المغفرة من روحي طفليها. فتح ماسارو عينيه ونظر إليها. لكنه شعر بنوع من السلام في تلك الدموع، وليس القلق المعتاد.

– لقد فكرت فيهما مرة جديدة؟

– نعم.

أن نقول الحقيقة أمر معقد للغاية. ولكن الآن بعد أن كذبت، شعرت بالانزعاج لأن زوجها لم يبكِ معها. لو كانت قد رأت دموعه، لصدّقت ربّما كذبتها.

***

انتهت مراسم اليوم التاسع والأربعين. اشترى ماسارو مكاناً في مقبرة تاما. كانت هذه أولى الوفيات لفرع من عائلته وأول القبور. تم تكليف ياسوو أيضاً برعاية

الأطفال في الضفة البعيدة: بعد الاتفاق مع العائلة الرئيسية، سيتم دفن رمادهما في القبر نفسه.

فقدت مخاوف توموكو أسبابها مع تزايد حزنها. ذهبت مع ماسارو وكاتسوو لرؤية الموقع الجديد في المقبرة. كان الخريف قد بدأ بالفعل.

كان النهار رائعاً. خفت درجة الحرارة والسماء عالية وواضحة.

تجعل الذاكرة أحياناً الساعات متوازية، أو تكدسها واحدة فوق الأخرى. حدثت لتوموكو خدعة غريبة مرتين في ذلك اليوم. ربما، تحت السماء والشمس المشرقة للغاية، أصبحت أطراف عقلها الباطن شفافة.

قبل شهرين من حادثة الغرق، كان هناك حادث سيارة. لم يتأذَّ ماسارو، بالطبع، لكن منذ ذلك الحين لم تعد توموكو تصعد في السيارة معه أبداً عندما تصطحب كاتسوو بعيداً. يجب أن يكون ماسارو قد استقل القطار اليوم أيضاً.

يبدلان خطهما في المحطة م ليستقلا الخط القصير الذي يؤدي إلى المقبرة. نزل ماسارو من القطار أولاً مع كاتسوو. بعد أن احتجزها الحشد، لم تتمكن توموكو من الخروج إلا لثانية أو ثانيتين قبل أن يغلق الباب. سمعت صافرة عالية عندما أغلقت الأبواب المنزلقة خلفها، وكادت تصرخ وهي تستدير لمحاولة فتحها مرة أخرى. اعتقدت أنها تركت كييو وكيكو في العربة.

سحبها ماسارو من ذراعها. نظرت إليه نظرة عدائية كأنه شرطي جاء لاعتقالها. وحين عادت إلى رشدها بعد لحظة، حاولت أن تشرح ما حدث؛ كان عليها أن تشرح لنفسها فعلاً. لكن تفسيراتها أحرجت ماسارو فقط. كان يعتقد أنها كانت تمثل.

كان الصغير كاتسوو مسروراً بالقاطرة القديمة التي نقلتهم إلى المقبرة. كانت تحتوي على مدخنة طويلة وعالية جداً، إذ بدت كأنها جاثمة على ركائز متينة. فيما الحافة الخشبية التي يتكئ عليها السائق سوداء مثل الفحم. مع قرقرة وتنهدات وصرير الأسنان، تنطلق القاطرة أخيراً عبر حدائق الخضراوات الكئيبة في الضاحية.

توموكو، التي لم تكن قد رأت مقبرة تاما من قبل، اندهشت من هذا التألق. لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم منح مساحة كبيرة للموتى إذاً؟ مروج خضراء، طرق واسعة تصطف إلى جانبيها الأشجار، تحت سماء زرقاء صافية ولمسافة بعيدة. كانت مدينة الموتى أنظف وأكثر تنظيماً من مدينة الأحياء. لم تتح لها أو لزوجها الفرصة لمعرفة أي شيء عن المقابر، لكن كونهما أصبحا الآن من الزوار المؤهلين، فالأمر لا يبدو مؤسفاً. لم يفكر أي منهما في الأمر كثيراً، لكن بدا أن وقت حدادهما، ذلك العرض المظلم والقاتم، منحهما نوعاً من الأمان، وشيئاً مستقراً، وسهلاً، وحتى ممتعاً. لقد اعتادا الموت، ومثل الأشخاص الذين اعتادوا الرذيلة، أصبحا يشعران أنه ليس لديهما ما يخشيانه من الحياة.

كان الموقع إلى الجانب الآخر من المقبرة. اجتازا البوابة وتقدمًا، والعرق يغطيهما، نظرا بفضول إلى قبر الأدميرال تي، وثمة قبر كبير مزين بالمرايا، بذوق سيئ للغاية، جعلهما يضحكان.

استمعت توموكو إلى أزيز زيز خريف، واستنشقت البخور ورائحة العشب الطازج في الظل. "يا له من مكان ممتع. سيكون لديهما مساحة للعب، ولن يشعرا بالملل. لا يسعني إلا أن أعتقد أنهما سيكونان على ما يرام. أمر غريب، أليس كذلك؟".

شعر كاتسوو بالعطش. عند مفترق الطرق كان هناك برج بني طويل. كانت درجات القاعدة مظلمة بمياه النافورة المتدفقة أسفل المركز. كان العديد من الأطفال، الذين سئموا من مطاردة اليعاسيب، يشربون الماء بصخب ويرشونه على بعضهم بعضاً. من وقت لآخر، ترسم دفقةٌ قوسَ قزح رقيقاً في الهواء.

كان كاتسوو حيوياً وحازماً. أراد أن يشرب، فشرب. مستغلاً عدم إمساك والدته بيده، ركض نحوَ الدرجات. صرخت إلى أين هو ذاهب. أجاب: لأشرب الماء، من دون أن يدير رأسه. ركضت وراءه وسحبت ذراعيه بقوة إلى الخلف. احتج قائلاً: "هذا مؤلم". شعر بالخوف. لقد قفز عليه مخلوق مخيف من الخلف.

جثت توموكو على ركبتيها في ممر الحصى وأدارته صوبها. كان ينظر إلى والده، الذي كان بالقرب من سياج على مسافة يحدق فيهما بدهشة.

"لا يجب أن تشرب هذا الماء. لدي بعضٌ منه هنا من أجلك".

بدأت في فك غطاء زجاجة الترمس التي كانت تمسكها بركبتها.

وصلوا إلى مكانهم، في قسم منظم حديثاً من المقبرة، خلف صفوف من شواهد القبور. لقد زُرعت أشجار البقس الصغيرة هنا وهناك، بنمط محدّد جيداً، يمكن للمرء أن يميّزه إذا نظر من كثب. لم يتم إحضار الرماد بعد من معبد العائلة، ولم يكن هناك شيء يميز القبر. كانت لا تزال مجرد قطعة أرض مسطحة، محاطة بالحبال.

قال ماسارو: "سيرقد الثلاثة هناك معاً".

لم يمس هذا التعليق توموكو. فكرت كيف يمكن أن يحدث شيء بعيد الاحتمال؟ يمكن أن يحدث غرق طفل في المحيط، ولا شك أن الجميع سيصدق ذلك. لكن غرق ثلاثة أشخاص في وقت واحد كان أمراً عبثياً. ومع ذلك، الأمر مختلف بالنسبة إلى عشرة آلاف. ثمة شيء مثير للسخرية في ما لا يقاس، لكن لم يكن هناك شيء مثير للسخرية في كارثة طبيعية عظيمة، أو في حرب. كانت وفاة واحدة خطيرة ومهمة، مثلها مثل مليون حالة وفاة. ما كان زائداً قليلاً كان له طابع مختلف.

"ثلاثة دفعة واحدة! يا لهذا العبث! ثلاثة دفعة واحدة"، قالت.

كان الأمر أكثر من اللازم بالنسبة لعائلة واحدة، وقليلاً جداً على المجتمع. ولم تكن هناك أي خلفيات اجتماعية للموت في المعركة أو الموت على المنصب. أنانية مثلما هي النساء، أدارت وفتلت لغز الرقم ثلاثة. ماسارو، كونه كائناً اجتماعياً، توصّل إلى استنتاج مفاده أنه من الأفضل رؤية الحقائق كما يراها المجتمع: لقد كانوا محظوظين في الواقع لعدم وجود خلفية اجتماعية.

بعد العودة إلى المحطة، وقعت توموكو ضحية من جديد لهذا التقارب الزمني. كان لديهم عشرون دقيقة في انتظار قطارهم. أراد كاتسوو إحدى فراشي الغرير المعلقة على عصي، والتي كانت معروضة للبيع أمام المحطة. كانت ألعاب قطنية مبطنة وملونة لها عيون وآذان وذيل.

"لا يزالوا يبيعون بعد من هذه الفراشي!" صرخت توموكو.

– وتبدو أنها لا تزال تثير إعجاب الأطفال.

– كانت لدي واحدة منها حين كنت صغيرة.

اشترت توموكو واحدة من المرأة العجوز الجالسة إلى المنضدة وأعطتها إلى كاتسوو. وبعد لحظة وجدت نفسها تنظر إلى المناضد الأخرى لتشتري شيئاً لكيو وكييو، اللذين بقيا في المنزل.

"ما الأمر"؟ سألها ماسارو.

– أتساءل ما بي. اعتقدت أنه يجب أن أشتري شيئاً للآخرين.

رفعت توموكو ذراعيها المستديرتين البيضاوين لتدليك خديها وعينيها بقبضتيها. ارتجف أنفها كما لو كانت ستبكي.

"هيا، اشتري شيئاً ما. اشتري شيئاً لهما". أصرّ ماسارو وكاد يتوسل. "سنضعه على المذبح".

"لا. يجب أن يكونا حيّين". ضغطت توموكو بمنديلها على أنفها. كانت على قيد الحياة، ومات الآخرون. كان هذا هو الشر العظيم. كم هو قاسٍ أن نضطر على الحياة.

نظرت مرة أخرى إلى ما يحيط بها: لافتات الحانات الحمراء والمطاعم أمام المحطة، الأسطح الواضحة واللامعة لألواح الجرانيت المكدسة أمام دكاكين أحجار القبور، الورق المصفر للأبواب المنزلقة في أعلى الأرضيات، قرميد الأسطح، السماء الزرقاء، التي تغمق مع حلول المساء، الشفافة مثل الخزف. كان كل شيء واضحاً جداً ومخططاً جيداً. في قسوة الحياة كان هناك سلام عميق كما حين يغمى علينا.

***

كان الخريف يشارف على نهايته، وأصبحت حياة الأسرة أكثر هدوءاً يوماً بعد يوم. ليس بالطبع أن الحزن بأسره قد وضع جانباً. عندما رأى ماسارو زوجته تهدأ تدريجياً، صارت بهجة المنزل وعاطفته لكاتسوو تعيده أبكر من العمل. وعلى الرغم من أن المحادثة، بعد أن يوضع كاتسوو في الفراش، تتطرق إلى ما لم يرغب أي منهما في الحديث عنه، فقد تمكنا من العثور على نوع من العزاء فيه.

لم تكن العملية التي نجح بها مثل هذا الحدث المرعب في الاندماج في الحياة اليومية خالية من نوع جديد من الخوف، ممزوج بالعار، كما لو أنهما ارتكبا جريمة لن يتم اكتشافها في النهاية. بدا الأمر وكأنهما يعرفان، كما كانا يعرفان دائماً، أن الأسرة كانت تفتقد ثلاثة أشخاص، من وقت لآخر تكبلهم بغرابة.

لم يصبْ أحدٌ منهما بالجنون. لم ينتحر أحد. لم يمرض أحد. لقد مر الحدث المروع تقريباً من دون أن يترك أي ظل. انتهى الأمر بتوموكو بأن أشعرها بالملل. بدت كأنها كانت تتوقع شيئاً ما.

لقد حرما نفسيهما من المسرح والحفلات الموسيقية لفترة طويلة، ولكن سرعان ما وجدت توموكو الأعذار: هذه الملذات كانت تُبذل في الواقع لتعزية المنكوبين. كان عازف كمان مشهور من أمريكا يقوم بجولة موسيقية وكان لديهما تذاكر. أُجبر كاتسوو على البقاء في المنزل، فقط لأن توموكو أرادت الذهاب مع زوجها بالسيارة لحضور الحفلة الموسيقية.

استغرقت وقتاً طويلاً للاستعداد. استغرق الأمر وقتاً أطول لإعادة تصفيف الشعر الذي أُهمل لعدة أشهر. كان وجهها في المرآة، عندما كانت جاهزة، كافياً لإيقاظ ذكرى الملذات المنسية منذ زمن طويل. كيف تصف متعة الضياع تماماً في المرآة؟ لقد نسيت كيف يمكن أن تكون المرآة ساحرة. الحزن بلا شك، الذي يعيدك بعناد، ينتزعك بعيداً عن تلك المسرات.

جربت ارتداء كيمونو بعد آخر، واختارت أخيراً واحداً من اللون الأرجواني الفاخر مع حزام عريض مزركش. ماسارو، الذي كان ينتظر وراء مقود السيارة، تفاجأ بجمال زوجته.

استدار الناس لينظروا إليها على طول الرواق. كان ماسارو سعيداً جداً. ومع ذلك، بدت توموكو، مهما وجدناها جميلة، أن شيئاً ما كان ينقصها. قالت لنفسها إن هذا الاستياء المزعج يجب أن يكون نتيجة حياة وبهجة تؤكد فقط إلى أي مدى كان حزنها بعيداً عن الشفاء. لكنها كانت في الحقيقة مجرد عودة لعدم الرضا الغامض الذي شعرت به حين لم تُعامل كأم للآلام.

أثرت الموسيقا فيها، وسارت في الردهة بوجه حزين. تحدثت مع صديقة. بدا الحزن على وجهها مطابقاً تماماً لكلمات العزاء التي همست بها صديقتها التي قدمت لها الشاب الذي يرافقها. كان الشاب يجهل أحزان توموكو ولم يقل شيئاً ليعزيها. كانت كلماته تافهة، مع بعض الملاحظات النقدية الخفيفة عن الموسيقا.

يا له من شاب سيئ السلوك، فكرت توموكو وهي تشاهد رأسه اللامع ينحسر في الحشد. لم يقل شيئاً. ولا بد أنه رأى كم كانت حزينة.

كان الشاب طويل القامة ومرتفعاً فوق الحشد. عندما تحرك جانباً، رأت توموكو الحاجبين والعينين الضاحكتين وخصلة من الشعر تتساقط على جبهته. من المرأة، يمكن رؤية الجزء العلوي من رأسها فقط.

شعرت توموكو بشيء من الغيرة. هل كانت تتوقع من الشاب شيئاً غير بضع كلمات عزاء؟ هل أرادت كلمات أخرى، خاصة جداً؟ ارتجف كيانها كله حين التفكير في الأمر. كان عليها أن تقول لنفسها مرة أخرى إن هذا الشك الجديد هو عكس كل الأسباب. هي التي لم تُصب مرة واحدة بخيبة أمل من زوجها.

"أتشعرين بالعطش؟" سألها ماسارو، الذي كان يتحدث مع صديق. "يوجد بوفيه مع شراب البرتقال".

شربوا البرتقال بالمصاصة مباشرة من الزجاجة. كانت توموكو تراقب، ضاقت عيناها قليلاً كما يفعل الأشخاص الذين يعانون من قصر النظر في كثير من الأحيان. لم تكن عطشى على الإطلاق. تذكرت اليوم الذي أوقفت فيه كاتسوو عن شرب الماء من النافورة وأعطته ماءً مغلياً بدلاً من ذلك. لم يكن كاتسوو وحده في خطر. لا بد أنه كان هناك كل أنواع الميكروبات الصغيرة التي تدور داخل البرتقال.

***

فقدت توموكو عقلها قليلاً في بحثها عن المتعة. كانت هناك فكرة عن الانتقام من الشعور بأنها بحاجة إلى المتعة.

ليس بالطبع أنها كانت تميل إلى أن تكون غير مخلصة لزوجها. أينما ذهبت، كانت معه أو كانت تود أن تكون.

بالأحرى حلّ ضميرها على الأموات. حين عودتها من نزهة ما، كانت تنظر إلى وجه كاتسوو النائم، الذي وضعته الخادمة في الفراش مبكراً، وتفكر في طفليها الميتين، وقد غمرها الندم تماماً. لدرجة أن البحث عن التسلية أصبح بالنسبة إليها وسيلة أكيدة لتشعر بتأنيب الضمير.

اعتقدت توموكو فجأة أنها تريد العودة إلى الخياطة مرة أخرى. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجد فيها ماسارو صعوبة في متابعة تقلبات ومنعطفات العقل الأنثوي.

بدأت توموكو بالخياطة. لقد سعت بجهد أقل لتسلية نفسها. كانت تفحص الأشياء من حولها بهدوء، مصممة على أن تصبح ربة منزل مثالية. كان لديها شعور بـ"النظر إلى الحياة وجهاً لوجه".

كانت هناك علامات واضحة على الإهمال الذي يحيط بها. ظنّت أنها عادت من رحلة طويلة. كانت تقضي يوماً كاملاً في الغسيل ويوماً كاملاً في الترتيب. وجدت الخادمة العجوز أنها سرقت منها كل أعمالها.

صادف توموكو زوجاً من أحذية كييو وزوجاً من النعال الصغيرة ذات اللون الأزرق الفاتح والتي كانت تخص كييكو. أغرقتها بقايا من هذا النوع في التأمل، وجعلتها تذرف دموعاً ناعمة؛ لكن يبدو أيضاً أنها تجلب الحظ السيئ. ناشدت صديقة مشغولة بالعمل الخيري، وشعرت بروح نبيلة، فتبرعت بكل شيء لدار أيتام، حتى الملابس التي كان من الممكن أن تذهب إلى كاتسوو.

جالسة وراء ماكينة الخياطة، كانت توموكو تراكم في خزانة الملابس. فكرت في صنع بعض القبعات الجديدة الأنيقة، لكنها لم تستطع إيجاد الوقت. على الماكينة، كانت تنسى حزنها. كان طنين وحركة الآلة يقمعان اللحن المتقطع الآخر الذي صاحب تقلبات عواطفها.

لماذا لم تجرب هذه العملية الميكانيكية في وقت سابق لعزل نفسها عن عواطفها؟ لأن هذا، بالطبع، حدث في وقت لم يعد قلبها يجابه المقاومة التي شعرت بها في أوقات أخرى. ذات يوم وخزت إصبعها وخرجت قطرة دم. لقد كانت خائفة. سار الألم جنباً إلى جنب مع الموت.

لكن الخوف أعقبه شعور مختلف. ولو كان مثل هذا الحادث التافه قد يؤدي بالفعل إلى الموت، لكانت صلاتها مستجابة. لقد أمضت المزيد والمزيد من الوقت خلف ماكينتها. بيد أنها كانت أكثر الماكينات أماناً. ولم تتأثر حتى بها.

ومع ذلك، كانت تفتقد شيئاً ما. كانت تتوقع شيئاً. ابتعد ماسارو عن هذا البحث الغامض، وقضيا يوماً كاملاً من دون التحدث مع بعضهما بعضاً.

***

كان الشتاء يقترب. أصبح القبر جاهزاً فتمّ دفن الرماد.

في عزلة الشتاء، نفكر بحنين في الصيف. ألقت ذكريات الصيف بظلالها على حياتهما بحدّة أكبر. ومع ذلك، أصبحت الذكريات تبدو كأنها شيء من كتاب حكايات. حول النار الشتوية، أخذ كل شيء جواً من رواية.

في منتصف الشتاء، أدركت توموكو أنها حامل. لأول مرة أصبح النسيان حقاً طبيعياً. لم يتخذا قطّ الكثير من الاحتياطات. بدا من الغريب أن يولد الطفل من دون خطر، ومن الطبيعي أن يفقداه.

كل شيء كان على ما يرام. تم رسم خط بينهما وبين الذكريات القديمة. استعارت توموكو القوة من الطفل الذي كانت تحمله، وللمرة الأولى كانت لديها الشجاعة لتعترف لنفسها بأن ألمها قد انتهى. كان عليها فقط أن تعترف بالحقيقة.

حاولت توموكو أن تفهم. من الصعب أن تفهم على الفور. يأتي الفهم لاحقاً. نحن نحلل عواطفنا، نستنتج، ثمّ نفسّر لأنفسنا. بنظرها إلى الوراء، لم يكن بإمكان توموكو إلا أن تكون غير سعيدة بمشاعرها: إنها لا تناسبها. ما من شك في أن هذا السخط سوف يدوم أكثر من الحزن نفسه ويثقل قلبها. لكنها لم تستطع المحاولة مرة أخرى.

رفضت أن تجد ردود أفعالها مشكوكاً فيها. كانت أمّا. وفي الوقت نفسه لم تستطع إلا أن تساورها الشكوك.

لم يأتِ النسيان الحقيقي بعد، لكن شيئاً ما غطى آلام توموكو، مثل طبقة رقيقة من الجليد تغطي بحيرة. تتكسر من وقت لآخر، لكنها تعود وتتشكل بين عشية وضحاها.

بدأ النسيان يظهر قوته الكاملة عندما توقّفا عن الاهتمام به. كان يتسلّل. هاجم الكائن الحي مثل ميكروب غير مرئي، وتطوّر باستمرار وببطء. كان لدى توموكو حركات اللاوعي التي يقاومها المرء في الأحلام. كانت مقاومة النسيان تجعلها غير مرتاحة.

أخبرت نفسها أن قوة الطفل بداخلها هي التي جلبت لها النسيان. لكن الطفل كان يساعدها فقط. تلاشت معالم الحادث شيئاً فشيئاً، بهتت، ضعفت، تشوّشت، تلاشت.

ظهرت في سماء الصيف صورة مرعبة من الرخام، بيضاء وجنائزية. كانت قد حلت. سقطت الأذرع في سحابة، واختفى الرأس، وانزلق السيف الطويل من اليد. كان التعبير على الوجه الصخري يرفع الشعر، لكنه خفت ببطء وتراجع.

ذات يوم وجدت توموكو نفسها تطفئ الراديو عند سماعها تمثيلية عن أمّ فقدت طفلها. اندهشت من السرعة التي تخلّصت بها من عبء الذاكرة. الأم التي كانت تنتظر طفلها الرابع، شعرت بواجب أخلاقي لمقاومة ما كان شبه فجور: متعة أن تفقد نفسها في قلب حزنها. لقد تغيرت في الأشهر القليلة الماضية.

ومن أجل حب الطفل، كان عليها أن تقاوم موجات المشاعر المظلمة هذه. كان عليها أن تحافظ على توازنها الداخلي. لقد كانت أكثر سعادة بما تمليه عليها الصحة العقلية من النسيان الخبيث. قبل كل شيء، شعرت بالحرية. وفي ظلّ كل هذه الأوامر، شعرت بالحرية. النسيان، بالطبع، أظهر قوته. اندهشت توموكو لرؤية أن يتم التلاعب بقلبها بسهولة.

فقدت عادة التذكر، ولم يعد غريباً أن دموعها خذلتها في احتفالات أعياد الميلاد

أو زيارات المقبرة. تخيلت نفسها أنها أصبحت رحيمة وأنها قادرة على مسامحة كل شيء. عندما حلّ الربيع، على سبيل المثال، كانت قادرة على اصطحاب كاتسوو في نزهة إلى حديقة قريبة من دون أن تشعر (حتى لو حاولت) بالغضب الغيور الذي طغى عليها فور وقوع المأساة، لو رأت أطفالاً يلعبون في الرمال. بدا لها أن كل هؤلاء الأطفال يعيشون في سلام لأنها سامحتهم.

حلّ النسيان على ماسارو بشكل أسرع من زوجته، لكنه لم يظهر أي برودة. لقد كان هو الذي انغمس في طقوس عربدة من الحزن والشعور، لا هي. حتى لو كان الرجل متقلباً وخفيفاً، فهو عموماً أكثر عاطفياً من المرأة. كان غير قادر على إطالة مشاعره لفترة أطول، ومدركاً أن الحزن لن يستمر في ملاحقته بشكل خاص، شعر ماسارو فجأة بالوحدة، وسمح لنفسه ببعض الخيانة الزوجية. لقد سئم من ذلك بسرعة. وجدت توموكو نفسها حاملاً. عاد إليها مسرعاً كطفل يركض إلى أمه.

غادرتهما المأساة مثلما يغادر شخص هائم سفينة غارقة. وسرعان ما أصبحا قادرين على رؤيته مثلما تبدى للأشخاص الذين لاحظوه في أحد أركان الصحف في ذلك اليوم. حتى إن توموكو وماسارو تساءلا عمّا إذا كان لهما دور في ذلك. ألم يكونا متفرجين صودف أنهما بالقرب من الحادثة؟ لقد مات كلّ الذين شاركوا فيها، وسيتشاركون فيها إلى الأبد. لكي يكون لنا دور في حادثة تاريخية، فإن وجودنا ذاته يجب أن يكون على المحك بطريقة أو بأخرى. وما الذي وضع ماسارو وزوجته على المحك؟ في المقام الأول، هل كان لديهما الوقت لوضع أي شيء على المحك؟

كان الحدث يلمع من بعيد، مثل منارة على امتداد أرض، ذات مسافة كبيرة. كان ضوؤها متقطعاً، مثل الضوء الدوار لكاب تسوميكي، جنوب الشاطئ أ، والجرح أصبح مثالاً أخلاقياً، والحقيقة الملموسة استعارة. لم يعد مملوكاً لعائلة إيكوتا، بل أصبح ملكية عامة. مثلما يضيء ضوء المنارة على صحراء الشواطئ، على الأمواج التي تهدد طوال الليل بفكوكها البيضاء من رغوة الصخور المنفردة، ولا تزال تتألق على كتل الأشجار التي تحدها، لذا أشرق الحدث في حياة كل من حولهم. كان على الناس تعلم الدرس. درس قديم وبسيط يجب على الآباء حفره في أذهانهم. يجب مراقبة

الأطفال باستمرار عند اصطحابهم إلى الشاطئ. نحن نغرق حيث لا نتخيل أن ذلك ممكن.

لا يعني ذلك أن ماسارو وزوجته قد ضحًا بطفلين وأخت ليتعلما هذا الدرس. ومع ذلك، فإن الخسارة الثلاثية لم تكن لها نتيجة أخرى، ولم يعد هناك الكثير من الوفيات البطولية.

كان الطفل الرابع لتوموكو فتاة ولدت في أواخر الصيف. كانت سعادتهما لا حدود لها. جاء والدا ماسارو من كانازاوا لرؤية حفيدتهما الجديدة، وأثناء وجودهما في طوكيو اصطحبهما ماسارو إلى المقبرة.

أُطلق على الطفلة اسم موموكو. ازدهرت كلٌّ من الأم والطفلة. عرفت توموكو كيفية تربية الأطفال الصغار جيداً. وكان كاتسوو مسروراً لأن يكون لديه أخت صغيرة مرة أخرى.

***

حدث ذلك في الصيف التالي، بعد عامين من حادثة الغرق، وبعد عام من ولادة موموكو. فاجأت توموكو ماسارو بإخباره أنها تريد الذهاب إلى الشاطئ أ.

– لكنك قلتِ إنك لا تريدين العودة إلى هناك أبداً!

– لكنني أريد.

– كم أنت غريبة الأطوار. أنا لا أصرّ على العودة.

– أه! لا داعي لأن نتحدث بالأمر.

ظلت صامتة لمدة يومين أو ثلاثة. ثم كررت قولها:

– أودّ أن أذهب.

– اذهبي وحدَك.

– لا يمكنني ذلك.

- لماذا؟

- أشعر بالخوف.

- لِمَ تريدين الذهاب إلى مكان يشعرك بالخوف؟

- أريد أن نذهب كلّنا. ما كان ليحصل ذلك لو كنتُ هناك. أريدك أن تأتي أيضاً.

- لن نعرف ما قد يحدث إذا بقيت لفترة طويلة. ولا يمكنني أن أتغيّب كثيراً.

- فقط أربع وعشرون ساعة.

- لكنه مكان بعيد جداً.

سألها مرة أخرى لماذا تريد الذهاب. ردت فقط بأنها لا تعرف. ثم تذكر إحدى قواعد الروايات البوليسية التي أحبها كثيراً: القاتل يريد دائماً العودة إلى مسرح جريمته، بغض النظر عن المخاطر. استولت على توموكو تلك الحاجة الغريبة لرؤية المكان الذي مات فيه الطفلان مرة أخرى.

طلبت منه توموكو ذلك للمرة الثالثة – من دون الإصرار بشكل خاص وبالطريقة الرسمية نفسها – فقرر ماسارو أخذ إجازة لمدة يومين لتجنب الازدحام في عطلة نهاية الأسبوع. النزل الوحيد على الشاطئ أ كان إيراكوزو. حجزا غرفة بعيدة عن غرفة المصيبة قدر الإمكان. كانت توموكو ترفض دائماً السماح لزوجها بقيادة السيارة عندما كان الطفلان برفقتهما. استقل الأربعة، الزوج والزوجة، كاتسوو وموموكو، سيارة أجرة إلى إيتو.

إنها ذروة الصيف. خلف المنازل على طول الطريق كانت زهور عباد الشمس، شعثاء مثل عرف الأسد. وسيارة الأجرة ترسل سحباً من الغبار على وجوهها المسطحة الواضحة، لكن يبدو أن عباد الشمس لم يزعجها الأمر.

عندما ظهر البحر إلى يمينهما، أطلق كاتسوو صرخة فرح. كان عمره خمس سنوات، وقد مرّ عامان لم يذهب فيهما إلى الشاطئ.

لم يتحدثا قط في سيارة الأجرة. كانا في حالة اهتزاز شديد لدرجة أن يتمكنا من إجراء محادثة. كانت موموكو تتلفظ بشيء مفهوم من وقت لآخر. علّمها كاتسوو كلمة "بحر"، فأشارت بإصبعها إلى النافذة الأخرى على الجبل الأحمر وقالت: "بحر". شعر ماسارو أن كاتسوو كان يعلّم الطفلة كلمةً جلبت الشقاء.

وصلوا إلى إيراكوزو، وخرج المدير نفسه. أعطاه ماسارو بقشيشاً. لقد تذكّر جيداً كيف اهتزت يده في المرة السابقة عندما سلّمه ورقة الألف ين.

كان النّزل وادعاً والسنة سيئة. بدأ ماسارو يتذكر الأشياء ويغضب. عاتب زوجته أمام الأولاد.

– لماذا بحقّ الجحيم أتيتِ إلى هنا؟ إنه يذكرنا فقط بما لا نريد أن نتذكّره، ما انتهى بنا الأمر إلى نسيانه. هناك الكثير من الأماكن الرائعة التي كان بإمكاننا أخذ موموكو إليها لأول مرة. ولديّ الكثير من العمل لكي أسمح لنفسي بالقيام برحلات غبية.

– لكنك قلت إنك موافق؟

– لأنك أزعجتني.

كان العشب يشتوي في شمس ما بعد الظهيرة. كلّ شيء بدا بالضبط كما كان عليه قبل عامين. مايوه سباحة أزرق، أحمر وأخضر يجف على الأرجوحة البيضاء. كانت ثمة حلقتان أو ثلاث حلقات بالقرب من عارضة اللعبة، ونصفها مخفي بسبب العشب. العشب الذي مُدد فوقه جثمان ياسويه كان في الظل. بدت الشمس، التي وصلت من خلال الأشجار إلى العشب العاري، كأنها تحرك بدلة السباحة الخضراء التي ترتديها ياسويه ببقعها: تحركت بقع الشمس مع الريح. وحدها توموكو شعرت بالسراب. وبما أن ماسارو لم يعرف ما الأمر، فالحدث لم يكن موجوداً، لذا فإن مساحة العشب هذه ستبقى بالنسبة إليه ركناً هادئاً من الظل. بالنسبة إليه، وأكثر من ذلك بالنسبة إلى الزبائن الآخرين، قالت توموكو في نفسها.

كانت زوجته صامتة، وقد تعب ماسارو من توبيخها. نزل كاتسوو إلى الحديقة

وألقى الحلقة على العشب. جثم إلى الأسفل ليراقب بعناية إلى أين سيذهب. تدحرجت الحلقة بطريقة غريبة في منطقة الظل، انقلبت وسقطت. راقبها كاتسوو، وهو ثابت في مكانه. كان يعتقد أن الحلقة سوف يرتفع من جديد.

علا أزيز الزيز. شعر ماسارو، الذي كان صامتاً لحظتها، أن العرق يبلل ياقته. لقد تذكر واجباته كأب. "لنذهب إلى الشاطئ، كاتسوو".

حملت توموكو موموكو. عبر الأربعة حاجز السياج وتقدموا تحت أشجار الصنوبر. كانت الأمواج تتدفق بأقصى سرعة وتتفتح على الشاطئ.

كان المد منخفضاً، وكان بالإمكان الوصول إلى الشاطئ عن طريق الالتفاف حول الصخرة. أمسك ماسارو بيد كاتسوو، وعبر الرمال الساخنة على زلاجات مستعارة من النزل.

لم يكن هناك مظلّة واحدة على الشاطئ. لا يمكن رؤية أكثر من عشرين شخصاً على طول المكان حيث يمكن للمرء أن يسبح، والتي تبدأ بعد الصخرة.

بقوا واقفين بصمت على حافة الشاطئ.

كانت لا تزال هناك أكوام غيوم رائعة في ذلك اليوم. من الغريب، أن يبدو أنه يمكن لمثل هذه الكتلة المشحونة بالضوء أن تُدعم بالهواء. وفوق الغيوم المكدسة في الأفق، كانت السحب الخفيفة تتشتت وكأنها قد تطايرت بعيداً بواسطة مكنسة في هذا الأزرق. ظهرت الغيوم أدناه تحمل شيئاً ما، تقاوم شيئاً ما. يلف فائض الضوء والظل في شكله عنفاً داخلياً مظلماً يتراءى أنه يعدل، مثل الموسيقا، إرادة إبداعية مبدعة.

ومن تحت السحب، جاء البحر نحوهم، وهو أكبر بلا حدود وأكثر ثباتاً من الأرض. لا يبدو أن الأرض تسيطر على البحر أبداً، حتى في مضائقه. وعلى وجه الخصوص، على قوس كبير من الشاطئ، يغزو البحر كل شيء.

ارتفعت الأمواج، تكسرت، وانحسرت. كان هديرها مثل هدوء شمس الصيف، بالكاد يُسمع ضجة. بالأحرى هو صمت يسحق الأذنين. تحولات غنائية للأمواج، ليست

أمواجاً، بل شلالات ما يمكن أن يسميه المرء انفجار الضحك والاستهزاء بالأمواج تجاه أنفسها، شلالات جاءت لتموت عند أقدامهم، ولا تزال تتدفق عائدة.

ألقى ماسارو نظرة جانبية على زوجته.

كانت تحدق إلى البحر، حيث نسيمه ينفخ شعرها، ويبدو أن الشمس لا تزعجها. كانت عيناها رطبتين، ونظرتها أشبه بنظرة ملكة تقريباً، وفمها مغلقاً بإحكام. حملت بين ذراعيها الصغيرة موموكو، البالغة من العمر سنة واحدة، والتي كانت تضع قبعة صغيرة من القش.

سبق لماسارو أن رأى هذا الوجه من قبل. منذ المأساة، كان وجه توموكو غالباً ما يحمل هذا التعبير، كما لو أنها نسيت وجودها، وكأنها تنتظر شيئاً ما.

رغب في أن يطرح عليها سؤالا باستخفاف: "ما الذي تنتظرينه؟"، لكن الكلمات رفضت أن تخرج. قال لنفسه إنه يعرف من دون أن يسأل.

شدّ على يد كاتسوو بقوة أكبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللؤلؤة

(1963)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يوم العاشر من كانون الثاني ذكرى مولد السيدة ساساكي، لكن بما أنها كانت ترغب في الاحتفال به بشكل سري قدر الإمكان، فقد دعت فقط أقرب صديقاتها إلى منزلها لتناول الشاي. وهكذا اجتمعت السيدات ياماموتو، ماتسومورا، أزوما، كاسوغا، وكنّ جميعهن في الثالثة والأربعين من العمر، في عمر مضيفتهنّ نفسه.

تنتمي هاته السيدات، إذا جاز التعبير، إلى جمعية سرية: "لا تعترف بعمرك"، ويمكن للمرء أن يحسب ضمنياً أنهنّ لن يقلن عدد الشموع الموجودة على الكعكة. إن دعوة مثل تلك الضيفات الموثوق بهنّ، إلى عيد ميلادها، أظهر حذر السيدة ساساكي المعتاد.

من أجل استقبالهنّ، وضعت السيدة ساساكي خاتماً مزيناً باللؤلؤ. لا ينمّ وضع الألماس خلال اجتماع نسائي عن ذوق رفيع. في حين أن اللآلئ كانت تتماشى مع لون الفستان الذي ارتدته في ذلك اليوم.

كان الاستقبال قد بدأ لتوّه، وقد اقتربت السيدة ساساكي من تفحص الكعكة للمرة الأخيرة، عندما سقطت اللؤلؤة، التي لم تكن معلقة بشكل جيد وتهتز قليلاً من مكانها. بدا الأمر كأنه حادث سيئ للغاية، للتنغيص على الاستمتاع بالاجتماع، لكن ما كان أكثر إحراجاً لو أنّ جمعيهن لاحظن ذلك، فتركت السيدة ساساكي اللؤلؤة على حافة الطبق الكبير الذي يحتوي على الكعكة، وقررت التعامل معها لاحقاً. تمّ ترتيب الأطباق والشوك والمناديل الورقية حول الكعكة لها ولضيفاتها الأربع. ثم قالت السيدة ساساكي لنفسها إنها لن تظهر بخاتم ينقصه شيء؛ عندما قطعت الكعكة، خلعته بتكتم شديد، ومن دون أن تنظر إلى الوراء، وضعته على رف موجود على طول الجدار خلفها.

إن إثارة الثرثرة والمفاجأة والبهجة التي تلقّتها السيدة ساساكي من الهدايا المختارة بعناية التي قدمتها لها صديقاتها، سرعان ما جعلتها تنسى حادثة اللؤلؤ. وسرعان ما جاء موعد الحفل الإجباري: إشعال وإطفاء شموع الكيك. احتشدت جميعهن حول الطاولة للمساعدة في إضاءة 43 شمعة، الأمر الذي لم يكن بهذه السهولة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالكاد يمكن للمرء أن يتوقع من السيدة ساساكي، التي كانت رئتاها ضعيفتين، أن تنفخ كل هذه الكمية الكبيرة دفعة واحدة، وأثارت نظرتها بالعجز المطلق سلسلة كاملة من الأفكار والضحك.

لتقديم الكعكة، قامت السيدة ساساكي، بعد تقطيعها بجرأة، بقطع قطع سميكة أكثر أو أقل حسب الطلب، ووضعتها على الأطباق. أخذت كل ضيفة حصتها وذهبت للجلوس. مدت جميعهن أيديهن في الوقت عينه، ما أفضى إلى الكثير من الضغط والارتباك حول الطاولة.

تم تزيين الجزء العلوي من الكعكة بطبقة ثلجية ذات لون وردي، منثور عليها عدد من الخرزات الفضية الصغيرة. كانت بلورات سكر فضية، وهي زخرفة شائعة جداً على كعكات عيد الميلاد. في حالة الارتباك التي نتجت عن إعادة السكب مرة أخرى، تبعثرت بعض قطع الطبقة الثلجية وكمية من تلك الكرات الصغيرة على جميع أنحاء مفرش المائدة الأبيض. قامت بعض الضيفات بجمعها بأصابعهنّ لوضعها في أطباقهنّ، والبعض الآخر لابتلاعها مباشرة.

عدن جميعهن أخيراً إلى الجلوس ليأكلن وهنّ يضحكن بهدوء قطعةَ الكعكة الخاصة بهنّ. لم تُصنَع في المنزل، ولكن طلبتها السيدة ساساكي من صانع حلويات شهير، وقد أجمعت الضيفات على اعتبارها ممتازة.

سبحت السيدة ساساكي في السعادة. ولكن فجأة، ومع لمسة من الكآبة، تذكرت اللؤلؤة التي تركتها على الطاولة، ونهضت بشكل طبيعي قدر الإمكان لتلتقطها. ولكن، في المكان الذي كانت متأكدة أنها تركتها فيه، لم يعد بالإمكان رؤيتها.

كانت السيدة ساساكي تشعر بالهول من فقدان الأشياء. على الفور ومن دون تفكير، وفي وسط استقبالها مباشرة، تركت نفسها تستغرق في بحثها، وهي متوترة للغاية، فلاحظنها جميعهن.

– هل من خطب ما؟

قالت إحداهن.

– لا، أبداً. لحظة...

كان جواباً مبهماً، ولم يكن لدى السيدة ساساكي الوقت الكافي لتقرر الجلوس مرة أخرى، لتقف واحدة منهن، ومن ثم أخرى، لتنهض ضيفاتها كلهن كي يهززن مفرش المائدة أو يتحسسن الأرض.

لم تستطع السيدة أزوما، في مواجهة كل هذا الاضطراب، أن تجد كلمات كي تشجب بها القضية. كانت غاضبة لأن المضيفة تسمح لنفسها بخلق مثل هذا الوضع المستحيل من أجل فقدان لؤلؤة واحدة.

قررت السيدة أزوما أن تضحي بنفسها لإنقاذ كل شيء. بابتسامة بطولية صرخت:

"هذا هو الأمر إذاً! يجب أن تكون لؤلؤة ابتلعتُها للتو! كرة فضية تدحرجت على مفرش المائدة عندما أعطوني كعكتي، التقطتها وابتلعتها ميكانيكياً. أحسست بأنها كانت عالقة قليلاً في حلقي. بالطبع، إذا كانت ماسة، فسأعيدها على الفور، إذا لزم الأمر من خلال إجراء عملية، ولكن بما أنها مجرد لؤلؤة، فأنا أسألك أن تسامحيني ببساطة".

خفف هذا التصريح على الفور مخاوف المجتمعات، إذ شعرن قبل أي شيء آخر أنه حرر المضيفة من موقف محرج للغاية. لم تحاول أي واحدة منهن في أن تشكك في حقيقة أو زيف اعتراف السيدة أزوما. التقطت السيدة ساساكي إحدى الكرات الفضية المتبقية ووضعتها في فمها.

همهمت وقالت: "لهذه بالتأكيد طعم اللآلئ!".

وتلاشت هذه الحادثة الصغيرة بدورها في روح الدعابة السخيفة، وتبخرت وسط الضحك.

عندما انتهى الاجتماع، قادت السيدة أزوما سيارتها الرياضية ذات المقعدين، مع جارتها وصديقتها المقربة السيدة كاسوغا. بعد دقيقتين قالت لها السيدة أزوما: "اعترفي! إنها أنت التي ابتلعت اللؤلؤة، أليس كذلك؟ لقد أخذتُ الأمر على عاتقي لإنقاذِكِ اليوم".

كانت هذه اللغة غير الرسمية تخفي عاطفة عميقة، ولكن مهما كانت النية ودودة، فإن الاتهام الظالم كان اتهاماً غير عادل للسيدة كاسوغا. لم تتذكر على الإطلاق أنها ابتلعت عن طريق الخطأ لؤلؤة بدلاً من الكرة الفضية. كانت انتقائية للغاية بشأن طعامها، وبالمناسبة يجب أن تعرف السيدة أزوما ذلك، فمهما كانت عليه محتويات طبقها، فإن مجرد رؤية شعرة كان كافياً لمنعها من البلع.

وبصوت خفيض، احتجت بخجل: "آه، لا، حقاً!" قالت وهي تنظر إلى السيدة أزوما في محاولة لحل اللغز. "لا يمكنني أن أفعل مثل هذا الشيء".

– لا حاجة لتتظاهري بذلك. عندما رأيتك تخضرّين فهمت.

يبدو أن الحادثة الصغيرة التي وقعت في حفل الاستقبال قد حسمتها صراحة السيدة أزوما، ولكن كان لا يزال هناك قلق مثير للفضول حيال ذلك. السيدة كاسوغا، بينما كانت تتساءل عن أفضل السبل لإثبات براءتها، وجدت نفسها تتخيل في الوقت نفسه أن لؤلؤة استقرت وحدها في أمعائها. كان من غير المحتمل، بالتأكيد، أن تكون قد ابتلعت لؤلؤة وهي تظنّها كرة من السكر، ولكن مع كل صخب الشوارع والثرثرة، كان لا بدّ من القول إن هذا لا يزال ممكناً. استعادت في رأسها، وبلا توقّف، كل ما حدث، فلم تتبادر إلى ذهنها لحظة واحدة أنه كان بإمكانها وضع لؤلؤة في فمها، ولكن في نهاية الأمر، إن قامت بحركتها هذه بدون وعي، فلا يمكنها أن تأمل في تذكرها.

شعرت السيدة كاسوغا بأنها تحمر خجلاً بعنف. قدم لها خيالها فجأة وجهة نظر أخرى للمشكلة: إذا أدخلت لؤلؤة في جهازها الهضمي، فمن المؤكد أنها ستظهر سليمة، وربما تلطخت قليلاً بالعصائر المعدية، بعد يوم أو يومين.

وهذه الفكرة هي التي جعلت سعي السيدة أزوما شفافاً بالنسبة إليها. لا شك أن الاحتمال نفسه قد أحرجها وملأها بالخزي، ولهذا ألقت باللوم على شخص آخر، وأعطت نفسها بسخاء مظهر الاعتراف بالذنب لحماية صديقة.

في هذه الأثناء، كانت السيدة ياماموتو والسيدة ماتسومورا، اللتان تعيشان في

الناحية عينها، تعودان معاً إلى منزليهما بسيارة أجرة. بعد فترة وجيزة من انطلاق سيارة الأجرة، فتحت ماتسومورا حقيبتها لتلميع مكياجها قليلاً. تذكرت أنها لم تتبودر مجدداً منذ أن حدثت كل تلك المشاعر في حفل الاستقبال.

وبينما كانت تمسك بعلبة البودرة لاحظت شيئاً لامعاً ينزلق إلى قعر حقيبتها.

بحثت بأطراف أصابعها، فأمسكت السيدة ماتسومورا ذاك الشيء، ورأت بدهشة أنه لؤلؤة.

كتمت السيدة ماتسومورا تعجبها من المفاجأة. كانت علاقاتها مع السيدة ياماموتو أقل من ودية منذ فترة، ولم تكن ترغب في مشاركة هذه السيدة في اكتشاف قد تكون آثاره محرجة للغاية بالنسبة إليها.

لحسن الحظ، كانت السيدة ياماموتو تنظر من النافذة ولا يبدو أنها لاحظت ارتجافة شريكتها من الدهشة.

مندهشة من تحول الأحداث المفاجئ، لم تكلف السيدة ماتسومورا نفسها عناء التساؤل عن كيفية دخول اللؤلؤة إلى حقيبتها، لكنها وجدت نفسها على الفور مقيدة بالنظام الأخلاقي الذي كان لها: الحركة الكشفية. في رأيها، كان من غير المحتمل أن تكون قد فعلت شيئاً كهذا، حتى من دون أن تدركه. ولكن بما أن الشيء قد انتهى به المطاف في حقيبتها، فإن الأمر الوحيد الذي يجب فعله هو إعادته على الفور. كما أن حقيقة أنها كانت لؤلؤة، وبالتالي فهي سلعة لم تكن باهظة الثمن ولا رخيصة حقاً، جعلت وضعها أكثر غموضاً.

في أي حال، كانت مصممة على تجاهل السيدة ياماموتو كل شيء عن هذه المغامرة غير المفهومة، خاصة أن السؤال قد تمّ حله جيداً من خلال كرم السيدة أزوما. شعرت السيدة ماتسومورا بأنها غير قادرة على البقاء لمدة ثانية في سيارة الأجرة، وتحت ذريعة أنها تذكرت بأنها مضطرة للذهاب لرؤية قريب مريض، أوقفت على الفور سيارة الأجرة، وسط منطقة سكنية هادئة. السيدة ياماموتو، التي تُركت بمفردها في سيارة الأجرة، كانت مندهشة بعض الشيء لأن مزحتها السيئة أثارت ردّ

فعل مفاجئاً من السيدة ماتسومورا.

تابعت تحركات السيدة ماتسومورا على نافذة سيارة الأجرة كما في المرآة، وشاهدتها بوضوح وهي تأخذ اللؤلؤة من حقيبتها.

خلال حفل الاستقبال، تم تقديم أول شريحة من الكعكة إلى السيدة ياماموتو. أضافت إلى صحنها كرة فضية كانت انزلقت على المنضدة، ثم عادت إلى مقعدها، مرة أخرى قبل الآخرين، ولاحظت أن الكرة الفضية عبارة عن لؤلؤة. كان الاكتشاف قد ألهمها على الفور بحركة خبيثة. بينما كانت الأخريات مشغولات حول الكعكة، سرعان ما أدخلت اللؤلؤة في المحفظة التي تركتها الخبيثة التي لا تطاق السيدة ماتسومورا على كرسي بذراعين.

تائهة وسط منطقة سكنية حيث لم يكن لديها أدنى فرصة تذكر للعثور على سيارة أجرة، استسلمت السيدة ماتسومورا بشكل محموم لجميع أنواع التأملات حول وضعها.

أولاً، مهما كان من الضروري تهدئة ضميرها، سيكون من المخزي حقاً، عندما قامت الأخريات بفعل الكثير لتهدئة الأمور، أن تعيد إذكاء نار كل شيء من جديد؛ والأسوأ من ذلك، أنه نظراً إلى استحالة شرح ما حدث، فستكون موقع شبه بطريقة غير عادلة.

ثانياً، إن لم تُعِد اللؤلؤة على الفور، على الرغم من كل هذه التحليلات، فلن تتح لها الفرصة أبداً مرة أخرى. لتنتظر حتى الغد (التفكير في ذلك جعل السيدة ماتسومورا تحمر خجلاً)، وستثير اللؤلؤة التي تم العثور عليها بعض الأسئلة والشكوك المثيرة للاشمئزاز التي كانت السيدة أزوما قد ألمحت إليها بالفعل.

حينها، طرأت على بال السيدة ماتسومورا خطة بارعة أسعدتها، والتي من شأنها أن تريح من ضميرها ولا تعرضها للشك الظالم. أسرعت خطواتها، لينتهي بها المطاف في شارع مزدحم نسبياً، حيث أوقفت سيارة أجرة وأخبرت السائق أن يأخذها بسرعة كبيرة إلى جينزا، إلى متجر لؤلؤ شهير. وهناك، أخرجت اللؤلؤة من حقيبتها

لتعرضها على البائع، وطلبت منه رؤية لؤلؤة أكبر قليلاً وأفضل جودة. اشترتها، لتعود بسيارة أجرة دائماً إلى منزل السيدة ساساكي.

هذا ما تخيلته السيدة ماتسومورا. كانت ستهدي السيدة ساساكي هذه اللؤلؤة الجديدة، وتخبرها أنها عثرت عليها في جيب ثوبها. ستقبلها السيدة ساساكي، ثم تحاول إعادتها إلى خاتمها.

ومع ذلك، بما أن اللؤلؤة كانت أكبر، فلن ينجح الأمر، وستحاول السيدة ساساكي، المضطربة، إعادتها إلى السيدة ماتسومورا، لكن السيدة ماتسومورا سترفض استعادتها. عندئذ تجد السيدة ساساكي نفسها مجبرة على الاستنتاجات التالية بأن هذه المرأة تفعل ذلك لحماية شخص آخر. في ظلّ هذه الظروف، من الأسلم قبول اللؤلؤة وتركها عند هذا الحد. ربما رأت السيدة ماتسومورا إحدى السيدات الثلاث الأخريات تسرق اللؤلؤة. لكن على الأقل يمكنني التأكد من أن السيدة ماتسومورا بريئة تماماً من بين ضيفاتي الأربع. لم نرَ قطّ لصاً يسرق شيئاً ليستبدل به شيئاً مشابهاً ذا قيمة أكبر.

من خلال هذه الحيلة، اعتقدت السيدة ماتسومورا أنها ستهرب إلى الأبد من عار الشك، وأيضاً، مقابل القليل من المال، من آلام ضميرها.

لنعد إلى السيدات الأخريات. بعد أن عدن إلى منازلهن، استمرت السيدة كاسوغا على حالتها في الانزعاج من إغاظة السيدة أزوما القاسية. لتطهير نفسها من اتهام حتى لو كان سخيفاً مثل هذا، كان عليها أن تتصرف قبل الغد، إذ تعلم ذلك جيّداً، وإلا سيكون الأوان قد فات. يعني ذلك أن عليها أن تثبت بشكل إيجابي أنها لم تأكل اللؤلؤة. كان من الضروري للغاية إظهار ذلك. وهكذا، إذا تمكنت من برهنة الأمر للسيدة أزوما على الفور، فسيتم إثبات براءتها على الأقل من حيث أنها ذواقة (إن لم يكن على صعيد آخر) بشكل متماسك. ولكن إذا انتظرت حتى الغد، حتى لو نجحت في تقديم اللؤلؤة، فسيظهر حتماً الشك المخزي الذي يكاد يكون من المستحيل التحدث عنه.

وجدت السيدة كاسوغا، التي هي امرأة خجولة في العادة، الشجاعة في الرغبة

في التصرف، فاندفعت إلى خارج منزلها التي كانت قد وصلته لتوها، لتذهب إلى متجر لآلئ في جينزا، حيث اختارت واشترت لؤلؤة بدت لها بنفس حجم الكريات الفضية التي كانت على الكعكة. ثم اتصلت بالسيدة أزوما. أوضحت لها أنها وهي في طريقها إلى المنزل وجدت اللؤلؤة التي فقدتها السيدة ساساكي في ثنايا عقدة حزامها، ولكن نظراً إلى أنها كانت محرجة جداً من الذهاب وإعادتها بمفردها، تساءلت عما إذا كانت السيدة أزوما تتحلى باللطف في أن تأتي معها، في أقرب وقت ممكن. بصرف النظر عن نفسها، وجدت السيدة أزوما أن القصة غير محتملة إلى حد ما، ولكن نظراً إلى أن صديقة طلبت ذلك، فقد وافقت على الذهاب.

قبلت السيدة ساساكي اللؤلؤة التي أحضرتها لها السيدة ماتسومورا، ووجدت أنها لا تناسب الخاتم، كانت لطيفة بما يكفي للبحث عن تفسير لذلك يقود إلى ما كانت تأمل فيه السيدة ماتسومورا؛ لذلك كانت مندهشة للغاية عندما وصلت السيدة كاسوغا، بعد نحو ساعة، برفقة السيدة أزوما، لمنحها لؤلؤة أخرى.

كادت السيدة ساساكي أن تذكر الزيارة التي قامت بها السيدة ماتسومورا لتوها، لكنها تجاهلت الخطر وتراجعت في اللحظة الأخيرة. قبلت اللؤلؤة الثانية بهدوء قدر استطاعتها.

كانت متأكدة من أن هذه ستتناسب مع الخاتم، لذا بمجرد أن غادرت الزائرتان حاولت على عجل تثبيته على الخاتم. لكنها كانت صغيرة جداً، وغير ثابتة في الإطار. اكتشاف ترك السيدة ساساكي لا مندهشة فحسب، بل في حيرة شديدة.

في طريق العودة، في السيارة، وجدت المرأتان نفسيهما غير قادرتين على تخمين ما كانت تفكر فيه الأخرى، وبينما كانتا تتجاذبان أطراف الحديث بحرية، غرقتا في صمت طويل.

كانت السيدة أزوما، التي تعتقد أنها غير قادرة على فعل أي شيء لا علم لها به، متأكدة من أنها لم تبتلع اللؤلؤة. لقد كان الأمر ببساطة لإخراج الجميع من الإحراج الذي أصابها، وقد أدلت بكل خجل، ببيانها، وبخاصة لإنقاذ صديقتها، التي لم تكن تعرف كيف بدت مذنبة بشكل واضح.

ولكن ما عليها أن تفكر فيه الآن؟ لديها انطباع بأن كل تصرف السيدة كاسوغا الغريبة، كما هذه العملية المعقدة (أن ترافق لإعادة اللؤلؤة) تخفي شيئاً أعمق بكثير. هل كان من الممكن تصور أن السيدة أزوما قد حدّدت نقطة ضعف في شخصية صديقتها، وهي نقطة كان ممنوعاً لمسها، وأنها بدفع صديقتها إلى الحائط بهذه الطريقة، قد حولت هوس السرقة الاندفاعي واللاوعي إلى مرض عقلي عميق وغير قابل للشفاء؟

أما بالنسبة إلى السيدة كاسوغا، فقد احتفظت بالشك في أن السيدة أزوما قد ابتلعت اللؤلؤة بالفعل وأن اعترافها كان صحيحاً. في هذه الحالة، لا يمكن الغفران للسيدة أزوما، حين تكون الأمور مرتبة مسبقاً، لأنها أزعجتها بقسوة في طريق عودتها من حفل الاستقبال، ولأنها ألقت ذنبها عليها. ونتيجة لذلك، بما أنها كانت خجولة، فقد أصيبت بالذعر، وإلى جانب الأموال التي أنفقتها، شعرت بأنها مضطرة للعب هذه الكوميديا الصغيرة، وبعد كل ذلك كانت السيدة أزوما لا تزال سيئة المزاج بما يكفي لرفض الاعتراف بأنها هي التي ابتلعت اللؤلؤة. وإذا كانت براءة السيدة أزوما وهمية تماماً، فهي نفسها، التي لعبت دورها بصعوبة بالغة، فأي ممثلة سيئة هي في نظر السيدة أزوما؟

لنعد إلى السيدة ماتسومورا. عندما غادرت بعد إجبار السيدة ساساكي على قبول اللؤلؤة، كانت روحها أكثر حرية وقد خطر لها أن تفحص من جديد، وعلى مهل، مسار الحادث، تفصيلاً وراء آخر. عندما ذهبت للحصول على قطعة من الكعكة، كانت بالتأكيد قد تركت حقيبتها على الكرسي. ثم، أثناء تناول الكعكة، استخدمت المناديل الورقية كثيراً، لذلك لم تكن بحاجة إلى إخراج منديل من حقيبتها. وكلما فكرت في الأمر قلّ تذكرها وهي تفتح حقيبتها قبل أن تتبرّج من جديد في سيارة الأجرة. كيف يمكن أن تتدحرج لؤلؤة في حقيبة كانت مغلقة دائماً؟

لقد فهمت الآن كم من الغباء أنها لم تلاحظ ذلك من قبل، بدلاً من الذعر عندما رأت اللؤلؤة.

بعد أن وصلت إلى هذا الحد، ضعقت السيدة ماتسومورا بفكرة مذهلة. ثمة شخص

ما قد وضع اللؤلؤة في الحقيبة عمداً لتجريمها. ومن بين الضيفات الأربع في حفل الاستقبال، كان الشخص الوحيد القادر على شيء من هذا القبيل، بلا شك، السيدة ياماموتو المقيتة.

بعينين تبرقان من الغضب، هرعت السيدة ماتسومورا إلى السيدة ياماموتو.

بمجرد أن رأت السيدة ماتسومورا واقفة في المدخل، فهمت السيدة ياماموتو على الفور السبب الذي دفعها للقدوم إليها. كانت قد أعدت خطة دفاعها. ومع ذلك، تبين أن استجواب السيدة ماتسومورا كان قاسياً بشكل غير متوقع، وكان من الواضح منذ البداية أنها لن تقبل أي تهرب.

قالت السيدة ماتسومورا القوية في استنتاجاتها: "إنها أنتِ، أعرف ذلك. أنتِ فقط من يستطيع فعل شيء كهذا".

"لِم أنا؟ ما دليلك على ذلك؟ إذا كنت قادرة على المجيء وقول ذلك في وجهي، أعتقد أن لديك دليلاً قاطعاً، أليس كذلك؟" بدأت السيدة ياماموتو بالسيطرة على نفسها ببرود.

ردت عليها السيدة ماتسومورا بأن السيدة أزوما، التي اتهمت نفسها بشكل نبيل، كانت من الواضح أنها غريبة عن مثل هذا السلوك الدنيء والبغيض؛ أما بالنسبة إلى مدام كاسوغا، فقد كانت تفتقر إلى الشخصية للقيام بمثل هذه الحركة الخطيرة؛ لذا يتبقى شخص واحد فقط: أنتِ.

بقيت السيدة ياماموتو صامتة، فمها مغلق مثل محارة. على المنضدة أمامها كانت اللؤلؤة التي وضعتها السيدة ماتسومورا عليها تلمع بلطف. بسبب توترها لم يكن لديها الوقت حتى لمدّ يدها، وقد برد الشاي السيلاني الذي فكرت في تحضيره.

قالت السيدة ياماموتو وهي تمسح طرفي عينيها: "لم يكن لدي أي فكرة بأنك تكرهيني إلى هذه الدرجة". ولكن كان من الواضح أن السيدة ماتسومورا كانت مصممة مرة وإلى الأبد على ألا تنخدع بالدموع. "حسناً، بهذه الحالة، سأقول"، واصلت السيدة ياماموتو، "ما كنت أفكر في أنه لا يجب أن يقال أبداً. لن أذكر اسماً،

لكن إحدى الضيفات...".

– ما يعني ذلك، أفترض، أنها إمّا السيدة أزوما وإمّا السيدة كاسوغا؟

– من فضلك، أتوسل إليك، على الأقل السماح لي بعدم قول الاسم. كما كنت أقول، كانت إحدى الضيفات قد فتحت حقيبتك لتوها وألقت شيئاً فيه عندما نظرت في اتجاهها. يمكنك تخيل دهشتي. حتى لو شعرت بأنني قادرة على تحذيرك، فلن تسنح لي الفرصة. كان قلبي ينبض، ينبض، ينبض! وعندما غادرنا سيارة الأجرة، كان من المروع عدم القدرة على التحدث إليك. لو كنا صديقتين، بالطبع، كان بإمكاني إخبارك كل شيء بصراحة، لكن بما أنني عرفت أنه من الواضح أنك لا تحبينني...

Telegram:@mbooks90

– أفهم. أنا متأكدة من أنك كنت في أقصى درجات الانتباه. مما يعني، أليس كذلك، أنكِ ألقيت باللوم الآن على السيدة أزوما والسيدة كاسوغا؟

– ألقيت الذنب! لكن كيف أجعلك تفهمين ما أشعر به؟ كل ما أردته هو عدم إيذاء أحد.

– طبعاً. لكن أن تؤذيني أنا فهذا سيّان عندك، أليس كذلك؟ كان من الممكن أن تخبريني بذلك على الأقل في سيارة الأجرة.

– لو كنتِ صريحة معي عندما عثرتِ على اللؤلؤة، لأخبرتُكِ ربّما، في تلك اللحظة، بكل ما رأيته، لكن لا، لقد فضّلتِ مغادرة التاكسي، من دون أدنى كلمة!

للمرة الأولى، حين سمعت ذلك، لم تجد السيدة ماتسومورا شيئاً لتجيب به.

"حسناً، إذاً. هل أنجح في أن أجعلك تفهمين؟ لم أرغب في إيذاء أحد".

شعرت السيدة ماتسومورا بالغضب أكثر.

قالت: "إذا كان عليك أن تخرجي بمثل هذا النسيج من الأكاذيب، فيجب أن أطلب منك تكرارها الليلة إذا أردت، بحضوري، أمام السيدة أزوما والسيدة كاسوغا".

عندئذٍ انفجرت السيدة ياماموتو بالبكاء.

كانت رؤية السيدة ياماموتو تبكي أمراً جديداً للغاية بالنسبة إلى السيدة ماتسومورا، وبقدر ما قالت لنفسها إنها لن تضعف أمام الدموع، لم تستطع التخلص من الشعور بأنه ربما، في مكان ما، لأنه لا يمكن إثبات أي شيء من هذه القصة، كان هناك ذرة من الحقيقة في تأكيدات السيدة ياماموتو.

بادئ ذي بدء، لكي نكون أكثر موضوعية قليلاً، إذا تم اعتبار قصة السيدة ياماموتو صحيحة، فإن إحجامها عن الكشف عن اسم الجاني، وهو ما رأته بأم عينيها، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الرهافة لا تنقصها. ومثلما لا يمكن أن يقال إن السيدة كاسوغا اللطيفة، التي بدت خجولة جداً، لا يمكن أبداً استفزازها لارتكاب الشر، لذا فإن العداء الذي لا يمكن إنكاره بينها وبين السيدة من المرجح أن يجعل الأمر ذنب السيدة ياماموتو. لأنه إذا كانت ستفعل مثل هذه الأشياء، وأن علاقتهما ستكون كما هي، فإن السيدة ياماموتو ستكون المشتبه به الأول.

"لدينا طبائع مختلفة للغاية"، تابعت السيدة ياماموتو التي كانت لا تزال تبكي، "وأعرف أنّ هناك أشياءَ فيكِ لا أحبّها. لكن على الرغم من ذلك، من المروع جداً بالنسبة إليك أن تشكي بي في مثل هذه الحيلة السيئة للتغلب عليّ... وإلى جانب ذلك، لو فكّرنا جيّداً، أن تتألمي من دون قول كلمة واحدة سيكون أكثر انسجاماً مع ما كان عليه شعوري طوال الوقت. سأكون الوحيدة التي تتحمل الذنب ولن يتأذى أي شخص آخر".

بهذه الكلمات المثيرة للشفقة، انهارت السيدة ياماموتو بوجهها على الطاولة وانفجرت بالبكاء.

بدأت السيدة ماتسومورا، وهي تنظر إليها، تفكر في مدى عدم التحكم في سلوكها. لقد كرهت السيدة ياماموتو كثيراً لدرجة أنه كانت هناك أوقات، خلال عمليات التوبيخ التي كبلتها بها، قد سمحت فيها لنفسها بأن تتعامى بسبب العاطفة.

عندما، بعد بكاء طويل، رفعت السيدة ياماموتو رأسها، ووجهها النقي والبعيد إلى حد ما، أظهرت دقة يمكن إدراكها حتى لزائرها. جلست السيدة ماتسومورا، وهي خائفة بعض الشيء، على كرسيها.

"ما كان على هذا الأمر أن يحدث مطلقاً. ما إن يختفي، سيعود كل شيء إلى سابق عهده". كانت السيدة ياماموتو تتحدث عبر الألغاز، لتبعد شعرها المنكوش وتلقي نظرتها الرهيبة، والجميلة اللافتة للنظر، على المنضدة أمامها. في ثانية استولت على اللؤلؤة وبحركة من قرار دراماتيكي، ألقتها في فمها. ثم رفعت فنجانها من المقبض، وخنصرها مبعد بأناقة، أخفت اللؤلؤة بعيداً برشفة واحدة من الشاي السيلاني الذي برد.

كانت السيدة ماتسومورا تراقبها مذعورة ومندهشة. انتهى كل شيء قبل أن تتمكن من الاحتجاج. كانت هذه هي المرة الأولى في حياتها التي ترى فيها أي شخص يبتلع لؤلؤة، وثمة شيء عند السيدة ياماموتو من هذا اليأس اليائس الذي تتوقع أن تجده في شخص ابتلع السمّ لتوه.

ومع ذلك، وبقدر ما كانت حركتها بطولية، إلا أنها كانت مؤثرة قبل كل شيء، ولم تشعر السيدة ماتسومورا فقط أن غضبها يتبخر، ولكنّ بساطة السيدة ياماموتو ونقاءها أثارا إعجابها كثيراً لدرجة أنها لم تعد ترى في هذه السيدة سوى قديسة. وامتلأت عينا السيدة ماتسومورا بالدموع، وأمسكت بيد السيدة ياماموتو.

قالت: "أرجوك سامحيني، أرجوك سامحيني، لقد كنت مخطئة".

بكتا معاً لبعض الوقت، وأمسكتا بأيدي بعضهما، وأقسمتا لبعضهما أنهما ستصبحان من الآن فصاعداً صديقتين لا تتزعزعان.

عندما علمت السيدة ساساكي أن العلاقة بين السيدة ياماموتو والسيدة ماتسومورا، التي كانت متوترة للغاية، قد تحسنت فجأة، وأن السيدة أزوما والسيدة كاسوغا، اللتين كانتا صديقتين للغاية، لم تعد تلتقيان قطّ، لم تكن قادرة على فهم الأسباب، فاضطرت بالاكتفاء بأن تخبر نفسها أنه لا يوجد شيء مستحيل في هذا العالم.

ومع ذلك، نظراً إلى أنها لم تكن امرأة تهتم كثيراً بتأنيب الضمير، فقد طلبت السيدة ساساكي من صائغ إعادة تصميم خاتمها والعثور على تصميم يسمح بترتيب لؤلؤتين،

واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، ووضعت الخاتم بشكل علني للغاية، من دون وقوع مزيد من الحوادث.

لقد نسيت بسرعة وبصورة كاملة العثرة الصغيرة التي حدثت في عيد ميلادها، وحين تُسأل عن عمرها كانت تعطي الإجابات الخاطئة نفسها، كما هي الحال دائماً.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صبيحة حبّ طاهر

(1965)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

في ذلك الصباح، تبادل ريوسوكي وزوجته قبلة رائعة للمرّة الأولى منذ فترة طويلة.

تحت سماء الصباح، أو بالأحرى تحت سماء الفجر الباهت، خرجا إلى الشرفة؛ شعر كلّ واحد منهما بهواء الفجر على حافة شفتي الآخر، كما لو كانا يشربان مياه النعناع، ثم قبّلا بعضهما بلا كلل، ليداعبا بلسانيهما دفء تجويف الفم حيث تسلّلت حقّى الليل بأسره.

ترتفع، من هنا وهناك، صيحات الديكة. كان الشفق الضبابي لا يزال يكتنف الأشجار في البساتين؛ على الرغم من أننا أصبحنا في شهر أيار، فالبرد كان يسيطر على جلدهما. ارتدت الزوجة، ريكو، بإهمال، ثوباً أزرقَ، لكن بما أن يديها كانتا ملفوفتين حول رقبة زوجها وهي واقفة على أطراف أصابعها، تدلّى نهداها من على جانبي ثوبها الذي بلا أكمام فبدوا كأنهما يطفوان تحت نسيم الصباح.

لم تكن ريكو تبدو كأنها قد بلغت فعلاً الخامسة والأربعين من عمرها: كان جلدها ثلجياً دون أن يظهر عليه أيّ أثر للتعب، إذ إن إرهاقها كان مخفياً في الداخل، مختبئاً في الأعماق. وهو يظهر من وقت لآخر، مثل الطين في قاع الماء، بيد أن ذلك لم يشكل بعد مجالاً [حيوياً] لجسدها. كيف يمكن لنا أن نصف ذلك؟ لقد بقي جسدها، الذي يشكّل الواجهة، كما هو عليه، ممّا منع، بمهارة، الأحداث الدنيوية من أن تُمارس أي تأثير عليه. لقد عاشت وشاخت من دون أن تعكر نقاء مياه الوجود الشفافة... وبهذا ترسبَ كلّ خبث هذا العالم وتراكم في أعمق أعماق هذا الجسد. وبالتالي، فإن العمق الذي أخفته بشرتها لم يعد ينتمي إلى مجال جسدها. هل نقول إذاً هي الروح، أو تلك الخاصية العائدة لمعالجة النفايات حيث التحلل والتعفن مستمزان معاً، أو حتى الموت الذي يتعايش مع الحياة؟ مهما كان عليه الأمر، فذلك لم يشكل أي تأثير على حياتها، على مظهرها الخارجي، أي على جسدها نفسه.

الأمر هو عينه بالنسبة إلى ريوسوكي، الذي يبلغ خمسين عاماً من عمره. عندما

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

التقيا، كان من الصعب تصوّر زوجين أكثر جمالاً منهما. كان في الثالثة والعشرين من عمره، بينما، هي، في الثامنة عشرة. لقد بقيا يتواعدان لمدة سبع سنوات ولم يتزوّجا إلا بعد الحرب، عندما تمّ تسريح ريوسوكي: كان في ذلك الوقت يبلغ من العمر ثلاثين عاماً وكانت تبلغ من العمر خمسةً وعشرين. نظراً إلى أنه خلال عشرين عاماً من الزواج، لم ينجبا أطفالاً، فقد اختصر عالمهما على حياتهما المشتركة كزوجين.

أما طريقته في الكسل، أي تلك التي مارسها ريوسوكي خلال هذين العقدين، في المنزل الذي ورثه عن والده بعد الحرب، فلم تجد تفسيراً عند أحد. يدّعي بعضهم أن ذلك كان بفضل كمية من الماس تمكنت والدته من حملها معها إلى الوطن، من إحدى المستعمرات، قبل نهاية الحرب بالضبط. لقد تمكنت من تهريبها إلى اليابان بعد أن خبأت العديد من الماسات في قوارير مساحيق التجميل، في حين كان وزن كل ألماسة منها يزيد على عشرة قراريط.

لكن من المؤكد، أنه بعد وفاة والديه، أثبت ريوسوكي مواهبه في إدارة الميراث، على الأقل، للحفاظ على قطار أسلوب حياته الزوجية: لقد استغلّ كلّ حالة اقتصادية ليصبح ثرياً ويعيش متعه وهواياته. لقد بدا كما لو أن هذا التقاعس، في حدّ ذاته، يجعله ينتقم من شيء ما. بدا الأمر غير واقعي تقريباً، إلّا أنّ الزوجين تمكّنا من الاستفادة من ثروتهما بشكل رائع ليعيشا حبّهما في عزلة ثنائية.

ربما يكون من الأصح القول إنهما عاشا في ذكرى غرامهما. لأنهما راهنا، في كلّ لحظة، على أول لقاء بينهما، على أول مفاجأة سعيدة حدثت لهما. كانت ريكو تعيد اكتشاف، باستمرار، في زوجها البالغ من العمر خمسين عاماً، وجه صبي يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة. وبدوره كان ريوسوكي، وباستمرار، يعيد اكتشاف في زوجته البالغة من العمر خمسةً وأربعين عاماً نضارة عمرها حين كانت في الثامنة عشرة.

هل ثمة قبح ما في هذا الأمر؟ هل من المستحيل جعل الآخرين يفهمون مثل هذا الوهم الذاتي للجمال؟ في الحقيقة، ومنذ اللحظة الأولى التي لم يعودا فيها في الثالثة والعشرين والثامنة عشرة من العمر، أي في السنة التالية للقائهما، أصبح ذاك

الأمر الهدف الأساس لحياتهما أو بالأحرى أصبح الهدف الأول لمقارعة الحياة. لقد عملا بجدّ للالتزام بذلك. عادا إلى ذكرى لقائهما الأول، لمرّات عدّة، وفق ما كانت تقتضيه الضرورة، وقد ساعدهما في ذلك منظر شبابهما الاستثنائي.

ومع ذلك كله، لا بدّ أن يكون لهذا الشباب من حدود. إذ بدأ تدريجياً، بتجنب ضوء النهار القاسي، وكذلك ضوء الليل الاصطناعي، ليفضلا على ذلك الإضاءة الخافتة عند الغسق أو الفجر. ففي هذه الأضواء الضبابية والطبيعية، استفاد كلّ من الرجل البالغ من العمر خمسين عاماً والمرأة البالغة من العمر خمسة وأربعين عاماً من هذه الرقة الفطرية التي احتفظ بها محيّا وجهيهما. لقد أدركا أنه في هذه الهالة فقط، قامت الطبيعة بعملية تخفيف قسوة قوانينها، لتحافظ داخل نضارتها هذه على انعكاس شبابيهما البعيد، كما لو أنه شفق قطبي على سفح الجبل.

لا تزال ريكو تتذكّر تماماً العطر الذي سرقته، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، من والدتها التي كانت تضعه في درج منضدة التزيين الخاصة بها، لترشّه عليها. وبما أن ريوسوكي هنّأها على اختيارها هذا، فقد أصبح، بالنسبة إليها، أقدس عطر في وجودها ولم تستخدمه إلّا في المناسبات الخاصة التي جمعتهما. وغنيّ عن القول إنه عندما كان يرغب في أن يشمّ هذا العطر، كانت ريكو تتوقع الأمر بشكل حدسي، وبما أنها خبرت هذه الفكرة وهي في الثامنة عشرة، فقد نجحت في تدبر كيفية أن ترتفع الرائحة من صدرها بشكل خفيّ.

في ذلك اليوم أيضاً، طاف ذاك العطر على الشرفة حيث تعانقا. بلا شك، استعادت وهي في سنّ الخامسة والأربعين، سنواتها الثماني عشرة.

كان منزل ريوسوكي يقع خارج طوكيو، على الضفة الأخرى لنهر تاماغاوا: فمن شرفة الطابق الأول، يمكن للمرء أن يميّز الخط الأبيض للنهر خلف البستان. كانت حركة المرور على الطرقات قد اشتدّت منذ بعض الوقت، إلّا أن وجود هذا البستان كان يحمي المنزل من الضوضاء، وعندما ارتفع ضباب الصباح، كان لدى المرء انطباع بأنه يرى بحيرة حليبية ممتدّة.

حتى في نداوة صباح ذلك اليوم من شهر أيار كان جسد ريكو، من خلال ردائها

الأزرق الملقى عليها بإهمال، حاراً مثل جمرة في الموقد بعد حلول الظلام. هذا الجسد الذي كان يداعبه، كما تلك الاستجابات الفورية والممتعة لكل جزء منه، رعشة جلدها، القشعريرة التي كانت تمرّ بحنان في كلّ مكان لمسته أصابع ريوسوكي كما لو كانت ريكو، في كلّ مرة، تشعر فيها باحتكاك جديد، يشبه طريقتها الطفولية في الوقوف على رؤوس أصابعها بحماسة. لقد شكّل ذلك كلّه السبب في مساعدتها على إعادة الحياة إلى سنيّها الثماني عشرة.

لم تكن لا قوة ريوسوكي، ولا كثافة القبلات الصادقة التي أعطاها لمن شاركته حياته لمدّة عشرين عاماً، قبلات شخص يبلغ الخمسين من عمره. كان لا يزال يتمتع ببنيّة شابّ قوية، وفي الوقت عينه، كانت أصابعه التي كان يداعب بها شعر زوجته برفق تخفي ترددات شخص مبتدئ.

لقد كانت قبلة باهرة، لدرجة أنهما لم يتبادلا، منذ سنوات، قبلة مليئة بمثل هذا النقاء، ما جعلهما يحلّقان عالياً فوق الأرض.

بالطبع، لتحضير مثل هذه القبلة، تطلب الأمر جهداً كبيراً وخدعة معقدة بقدر ما كانت مصطنعة، والتي كانت ستثير اشمئزاز البشر العاديين عبر لجوئها إلى مثل هذه العلاجات غير الطبيعية. الشيء الوحيد المؤكد الآن، هو أن هذه القبلة كانت، في هذه اللحظة بالذات، طبيعية تماماً، وكان من المفترض أن يصلا إلى هذه اللحظة الطبيعية التي أجبرا فيها على بذل جهد ضد الطبيعة.

لم يكن هناك أيّ مفرّ من الأمر: إذ كان من الضروري استدعاء جميع موارد الحكمة البشرية لجعل قوى الطبيعة المطيعة تعمل مرّة أخرى، بينما تقاومها وتخدعها. في البداية، لجآ إلى الشعر والخيال لبضع سنوات، لكن سمة هذه الاستخدامات المتفردة قضت فوراً على أيّ جهد لكي يغرفا مرة أخرى من المصدر عينه. وحالما حصلا على دليل أكيد على عدم فعاليته، سعيا للتعويض عن ذلك بالخداع، ولكن إذا كان من الممكن إعادة إنتاج الخدعة، فيجب أن يتمّ ذلك بقلب بارد.

ما حاولا البحث عنه لكي يستحضراه، كان أمراً بسيطاً: ذات صباح من صباحات شهر أيار استقرّت عينا الفتاة النقيّة على الشاب الذي أحبته؛ كان الحقل مبللاً بالندى.

وفي الأفق، يلوح ظلّ الحرب وكرب الحياة. هدّدهما الانفصال. تلامست الشفاه الصغيرة مع بعضها في قبلة تشبه ومضة الفجر الأولى... حسناً، إنه هذا النوع من صور السعادة المطلقة التي يهبها حبّ لا يُنسى. إلا أنه بعد عشرين عاماً من الزواج، كان الزوج لا يزال هنا، وكانت الزوجة لا تزال في مكانها. من يستطيع أن يلومهما؟ أن يكونا هنا، فهذا يعني أن ثمة حالة وجود حقيقة غير قابلة للتغيير، وفي اللحظة التي لم يعد هناك أي شك بشأنها، بدأت عملية التحلل. على عكس الأزواج العاديين، قاوما التعفن والتحلّل بكامل قوتيهما.

... عندما استنفدا مواردهما من الشعر والخيال والتظاهر، ابتكرا أساليب أكثر غرابةً فقاما بتطبيقها واحدة تلو الأخرى. هي أساليب يمكن لأي شخص أن يبتكرها بدافع الملل، لكنهما سعيا إلى تنفيذها وإنجازها بأجمل الطرق. كان هدفهما الوحيد يكمن في النجاح بتلك القبلة التي كانت تفتحت ذات مرة على شفتي فتاة صغيرة، في صباح أحد أيام شهر أيار. وهكذا بدآ باستخدام الآخرين.

كان ازدراؤهما البارد لاستخدام الآخر بمثابة ضمانة لشغفهما. لقد اعتبرا أن هذا الازدراء الشديد للكائنات له صفة وحيدة تتشكل من شبابيهما، وهذا ما يفضي إلى تربية شرعية.

... لذا، كان ريوسوكي وريكو، الآن، شخصا واحداً على الشرفة في فجر أيار الشاحب هذا.

كانا يعلمان أن ليس هناك من زوجين أجمل منهما في أي مكان آخر، ولا أحد أكثر منهما شباباً، إلى الأبد. قبل بضع سنوات، كان ريوسوكي يستخدم صبغة مستوردة لشعره، لذلك لم تكن أصابعهما تتلطّخ حين يلمسانه. احتفظ شعره بهذا اللون الأسود الكثيف، اللامع والحيوي. أما فيما يخص جمال ريكو، فيجب أن نتذكر، تألق عينيها المعبرتين من خلال جفنيها الرفيعين، من دون أدنى تجعد، كما بشرتها الفاتحة التي تكشف عن روح حساسة خاصة بفتاة صغيرة.

كان جمال قبلتهما العليمة ثمرة هذا المزيج الاستثنائي لكلّ من البراعة والخبرة: لقد عرفا كيف يمكن لها أن تبدو رائعة وحسية ونقية بشكل غير إنساني تقريباً من

خلال ستارة الدانتيل.

استمرت القبلة لفترة طويلة، بينما لم تتوقف صرخات الديكة، في حين ألقى وميض السماء، تدريجياً، هالة على الزوجين، يميل لونها إلى الفوشيا.

... وفجأة انبثق ظلّ من الستارة نحو الشرفة ليصطدم بكليهما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

سؤال: الاسم والعمر؟

جواب: تاكيشي ياماواكي، إحدى وعشرون سنة.

س: الدراسة؟

ج: جامعة ل، فرع الآداب. لكني لا أتابع المحاضرات في غالبية الأحيان.

س: الوضع العائلي؟

ج: غادرت منزل والدي. أعيش وحدي في غرفة.

س: هل ينظر والداك إلى ذلك بعين الرضا؟

ج: لا، أبداً، بل ينظران إلى ذلك بعين الغضب. والدي صاحب شركة صغيرة وهو يرغب في أن أستمر في العمل مكانه. إنه أمر يفطر قلبي. لكن مع هذه الأزمة، تعثر تفاؤل والدي. كان يعتقد بأنه الوحيد الذي سينجو من ذلك. لقد اعتاد القيامَ بنوبات غضب رهيبة ومن ثم إعطائي مالاً بعد ذلك. كان مقتنعاً أنه إن لم يعطِ ابنه نقوداً بعد نوبة غضب مماثلة، فسوف يلجأ ابنه إلى ارتكاب السوء ويصبح سفاحاً. لذا كنت أثير غضبه قدر الإمكان، حتى يمرّر لي أكبر قدر ممكن من المال. وهذا ما سمح لي بالاستقرار بمفردي في غرفة في شينجوكو-هياكو-نينشو.

س: أين التقيت بيوري ميازاكي؟

ج: عند فانكي. كنت بدأت بالتردد إلى هذا الجابو.

س: ماذا يعني هذا، الجابو؟

ج: إنها حانة لموسيقا الجاز. أنت لا تفقه شيئاً حقاً. ربما ليس أمراً فريداً، إلّا أنني أعشق كليفورد براون إلى حدّ الجنون. صاحب الحانة، فانكي، هو أحد المعجبين ببراوني. لذا يضع تسجيلاته في معظم الأحيان. لهذا السبب أذهب إلى هناك بلا توقف. هناك، التقيت بيوري. في ذلك المساء، كنا ثملين نحن الاثنين. وقد حدث الأمر

على هذا النحو.

س: كم استمرّت علاقتكما الجنسية؟

ج: ستة أشهر، ربما. بيد أن الأمر كان بشكل غير منتظم. لا بالنسبة إليها، ولا بالنسبة إليّ، كان الأمر بمثابة شغف. إلا أننا أصبحنا صديقين جيدين. هي أيضاً، تحب كليفورد براوني. كانت تقول إنها تعشق "النبرة اللامعة، الطافحة بالقوة الرجولية"، وكانت بقولها هذا تعيد بصق ما قرأته في إحدى مجلات الجاز. الحق يقال، كنّا نشعر بسعادة أكثر ونحن نستمع إلى تسجيلات براوني، كتفاً إلى كتف، أكثر من الوقت الذي كنّا فيه في السرير.

ذات مساء، حيث كنّا في هذا المكان، في الجنّة، نستمع إليه، شاهدنا دخول زبون جديد عند فانكي. وبما أن الإنارة كانت معتمة هناك، فقد اعتقدنا في البداية أن الفتاة كانت ترغب في التباهي، أضف إلى ذلك، أنها بدت متغربنة للغاية، لذلك جذبت الأنظار إليها. لكن عندما جلست إلى جانبي، تكهنت عمرها على الفور. لقد وضعت أطناناً من الماكياج، لكنها كانت ذات بشرة عجوز.

قد لا يبدو الأمر مرئياً، إلا أنني أملك أنفاً أستطيع عبره بأن أتكهن عمر تلك النسوة. عندما تبدو المرأة شابة جداً، فهذا أمر مريب، لأن الفتاة الصغيرة حقاً لا تحتاج إلى التباهي بشبابها وإظهاره فعلاً. في الثلاثين من عمرها، يمكن أن تفترض أن شبابها قد تجعّد قليلاً، لأنها تدرك أنها تطرح في السوق شيئاً آخر غير كونها فتاة تبلغ العشرين من العمر. إنه ليس شباباً مبهرجاً. لذلك قلت لنفسي إن هذه المرأة، كانت حكماً في الأربعين من عمرها وقد أصبت في ذلك.

يا لها من وحش، قلت في نفسي، وهذا ما جعلني في مزاج جيد.

ليس لدى الزبائن المياومين عند فانكي، إن كان لديهم أي شيء للبيع، لا الشباب أو الجمال بالتأكيد، بل الغباء والبؤس. بمجرد أن يصادفوا رجلاً ثرياً من جنس آخر، تراهم ينهارون. بيد أنني شخص لا يتأثر في ذلك.

استدارت المرأة نحوي وعندما التقت أعيننا، أفرجت عن ابتسامة خفيفة، ضبابية

قليلاً. ابتسمت لها كأنني أردّ لها ابتسامتها. لكن في مثل هذه الأوقات، ولا يمكنني أن أنسى ذلك، أشعر كأنني أطفو في الهواء. أدركت يوري ذلك على الفور وركعت أمامي وهي تهمس لي:

– أنت تعرف كيف تبيع نفسك، أليس كذلك؟

– أين المشكلة؟ إنها امرأة عجوز.

– آمل أن تحصل على بعض المال من ذلك. لتدفع لك ثمن سيارة رياضية.

داخل هذا النوع من العلب الليلية، يتعاطف الزبائن مع بعضهم بعضاً بسرعة. قدمت لنا المرأة العجوز الكحول وتجاذبنا أطراف الحديث نحن الثلاثة. قالت بصراحة إن زوجها يشعر بالغيرة وإنّه إذا علم بتسكّعها في مثل هذه الأماكن، فإنها لا تعرف ما الذي سيفعله بها. لكنني، أنا، فكرت في علاقتي مع يوري وقلت لنفسي إنّ كبرياء هذه المرأة حقّاً هو ما يجعلها تتخيّل غيرة رجلها.

سرعان ما أصبحنا نحن الثلاثة قريبين جداً. علاوة على ذلك، لقد فهمت أنه لم يعد هناك أي شيء بيني وبين يوري. حتى إنّها وجهت إلى يوري بعض النصائح: "بدلاً من أن تتسكعي هنا، من الأفضل لك أن تذهبي إلى الحانة في فندق رينبو، إذ يبدو أن هناك دائماً سادة يبحثون عن سيدات نضرات مثلك".

س: هل أقمت علاقة جنسية مع هذه المرأة منذ المساء الأول؟

ج: آه، لا تستعجلني كثيراً! في البداية، لم تكن تمضغ كلماتها. لكن عندما غادرت يوري ووجدت المرأة العجوز نفسها وحيدة معي، تصلبت كلّ أعضائها حقاً، كأنها تعرضت للترهيب. انتهى بي الأمر لأجد أنه لم يكن من السهل أن أحزم أمتعتها. فمن ناحية، قلت لنفسي: "حسناً، هذه المرأة العجوز، ترغب في إثارة الضجة من حولها!"، ومن ناحية أخرى، فقد أثارت اهتمامي قليلاً.

كانت ترتدي ثيابا أرجوانية اللون تناسبها بشكل لافت. لكن كان هناك شيء مثير للشفقة في ذلك. كانت طفلة غير ناضجة وامرأة جيدة واثقة من نفسها: اختلط الأمران معاً بشكل فظيع. حتى لو لم يكن هناك سوى أمر واحد فقط، لكان أحدهما

جعل الآخر أكثر تنافراً.

إن الراشدين، الذكور منهم كما الاناث، الذين يتسللون إلى عالمنا الشبابي ويلقون علينا ابتساماتهم البلهاء، لا يسعني إلا احتقارهم. لقد كان لهذه المرأة، عادة أن تظهر لي، في بعض الأحيان، في مظهر كلب مهزوم مثلما تملك موهبة إثارتي من الغضب.

كنت أحسب أنها تقوم بما في وسعها لتذهب مباشرة إلى فعل ذلك. بينما، في الحقيقة، لم تكن تفعل شيئاً، كانت متوترة مثل مجرمة. وعندما رأيت مخاوفها المسبقة، الظاهرة، رغبت في أن أكون أكثر قسوة.

كان بإمكانها دائماً أن تحاول إخفاء هذه المخاوف تحت تبرجها، لكنّ العلامات التي تحفر أخاديدها في زوايا أنفها وتحت أذنيها تُظهر أنها لم تعد تملك هذه النداوة العائدة للصبا. كان لديها صوت رقيق للغاية لا يتناسب أبداً مع عمرها، بدا كأنه صوت مصطنع. علاوة على ذلك، أنا شخصياً لست ضد القبح الذي يُكلف مؤخرتك والذي يلفت الأنظار. عندما ذهبنا للرقص، وقرّبت فمها من وجهي، اتخذت شفتاها شكلاً مذهلاً، مزيجاً من الرقي والروعة، إنها احتفالية امرأة عجوز، لم أكن أعرفها من قبل. في النهاية، لو كان شعرها أبيض ولو أسقطت مكياجها، لكنت جديراً في أن أحبها أكثر.

"لو فاجأني زوجي ملتبسة في مثل هذا المكان، فسيكون الأمر فظيعاً!"، همست في أذني، وهي تنظر بعصبية إلى رواد الحانة حولنا، بمجرد أن جلسنا على طاولة الملهى الليلي.

– لماذا؟ أنتِ من أتى لمغازلة الشباب عند فانكي.

– ماذا تريدني أن أقول عن كلامك هذا؟

– هل تحبين زوجك؟

– أنا لا أحبه، بل أعشقه.

– لا يبدو سيئاً ما تقولينه، بل إنه أمر مثير.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بهذه الطريقة كنت أحبّ أن أضايقها.

في تلك الليلة، لم نفعل شيئاً سوى تبادل القبل. لكن الطريقة التي استجابت بها لقبلتي سحرتني. بدت متحمسة، كما لو كانت أول قبلة تصدر عن فتاة عذراء. لقد كانت لعبة استعراضية لدرجة أنني تساءلت إن كانت تشعر بذلك حقاً. أعترف أن هذا جعلني غير مرتاح بعض الشيء. عندما افترقنا، أعطتني بعض المال كمصروف جيب وأخبرتني أننا سنلتقي مرة أخرى عند فانكي.

س: كم كان مبلغ مصروف الجيب هذا؟

ج: خمسة آلاف ين. لا بأس به، وفي الحقيقة كانت المرة الأولى التي تدفع فيها امرأة لي.

س: ألم ترفض هذا العرض؟

ج: تظاهرت بالتردد قليلاً، لكنها قالت: "ستكون تكاليف تعليمك. احتفظ به".

س: ما المقصود بتكاليف التعليم؟

ج: وكيف تريدني أن أعرف؟

س: كيف كان لقاؤك الثاني مع هذه المرأة؟

ج: قبل أن أجيب، عليّ أن أتحدث عن يوري. عدنا والتقينا في اليوم التالي، لكنني شعرت أن صداقتنا قد انتهت. لم تكن لدينا أي رغبة في الكلام عمّا جرى لكلّ منّا، في الليلة السابقة. كنّا نغرق الأسماك(5). أقول كلانا فعل ذلك، لأنني كنت أعرف جيداً أنها لم تكن من النوع الذي سيعود إلى المنزل فوراً بعد أن غادرتني في الليلة السابقة. حتى ذلك الحين، كنّا نخبر بعضنا كل شيء، لكن هذه المرة، لم أرغب في قول أي شيء، على الإطلاق، بخصوص هذه المرأة.

(5) عبارة تستعمل للدلالة على تصرف إرادي من أجل إيصال علاقة بين شخصين إلى النهاية. (م)

س: كيف كان لقاؤك الثاني إذاً؟

ج: لقد أصبحت أكثر سلبية عمّا كانت عليه. وفهمت أنها تريد أن أتوسل من أجلها. بقيت تكرّر أنه سيكون أمراً فظيعاً فيما لو علم زوجها بذلك، إذ سيقتلها.

كنت أعرف جيداً أن كلامها ليس سوى تقنية من أجل أن أعود وأندفع من جديد. بيد أنني أصبحت أكثر سوءاً وقلت لها:

– لو كنتِ أصغر بعشرين عاماً، ربما كان سيشعر بالغيرة.

– بصراحة، كم سيكون عليه عمري، لو كنتُ أصغر بعشرين عاماً؟

– عليكِ أنت أن تحصي ذلك!

أجبتها بقسوة. بدت نظرتها حزينةً إلى حدّ ما.

كانت جميع الملابس التي ترتديها ثياباً فاخرة. وعطرها، بالتأكيد، كان شيئاً راقياً للغاية، لم أكن على دراية به. ما كان يثير فيّ القلق، هو رؤيتها تفكّر في أمر آخر بين الفينة والأخرى. تنزهت معها في حديقة في منتصف الليل. دخلنا إلى أحد البساتين وفعلنا ما يفعله العشاق عادةً في مثل هذا النوع من الأماكن. كانت ترتجف مثل فتاة صغيرة، لكننا بالطبع لم نذهب إلى نهاية الفعل.

س: ماذا تقصد بـ"بالطبع"؟

ج: أنا أيضاً، لم أكن أرغب في استعجال الأمور. إلى أن سألتني هي بصراحة... إذا ما كنت بالفعل مغرماً بها قليلاً.

س: هل كنت كذلك حقاً، على الرغم من معرفتك بفارق السنّ الهائل بينكما؟ ألم يكن ذلك من أجل المال فقط؟

ج: لو كان الأمر من أجل المال فقط، لطلبت منها ذلك بنفسي بشكل مباشر. ربما تأثرت في رؤيتها وهي تخفي وجهها في الظلام كي تشعر بالاطمئنان. من المؤكد أنها كانت تصبح مفعمة بالحيوية في الظلام، كانت تضحك بصوتها الذي يشبه صوت طفلة صغيرة. لو سمعنا ضحكتها ببساطة، لقلنا إنها في الثامنة عشرة من عمرها لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر. كانت بشرتها ناعمة الملمس، ربما من جراء الندى على العشب.

كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنها كانت قبيحة وكبيرة في السن بشكل يبعث على السخرية. تسببت هذه الفكرة الباردة في نوع من النشوة بداخلي وكانت قريبة جداً من موسيقا الجاز الرائعة. لقد احتفظت بجزء من الازدراء تجاهها. قلت لنفسي إن هذه المرأة تخاف من الواقع. لذلك اعتقدت أنني يجب أن أمسك بشدّة هذه الحقيقة التي أخافتها.

س: ما نبحث عنه لا يكمن في هذه الإجابات المجردة للغاية. عليك أن تجيب بشكل محدد أكثر... لذا فأنت قد واصلت بالخروج معها، بينما كنت تقوم بخطوة للأمام وبأخرى إلى الخلف. هل كانت تدفع لك في كل مرّة؟

ج: أجل.

س: وغالباً ما كانت تقول إنها ستشعر بالإحراج فيما لو علم زوجها بالأمر؟

ج: نعم. حتى عندما كنّا نسير في الشارع بشكل عادي، كانت عيناها تتسعان من الخوف لتقول إنها تشعر بأن زوجها كان يراقبها. وكانت تضيف قائلة إنها إذا كانت تخشى ضوء النهار، فالسبب لم يكن لإخفاء عمرها، بل لأنها تشعر بأن الشمس ليست سوى نظرة زوجها. كنت أجدها سخيفة للغاية لدرجة أنني صفعتها على ردفيها. بعد ذلك بقليل، شكرتني والدموع في عينيها. لو كنتُ أحتقرها حقاً، لتوجب عليّ أن أضاجعها منذ البداية، حتى لو تطلب الأمر استخدام القوة.

س: لكننا نملك الدليل على أنك مارست الجنس مع هذه المرأة في النهاية. كيف نجحت في الوصول إلى ذاك؟

ج: ذات مساء لم يعد بإمكاني مقاومة رغبتي الغريبة فأخذتها إلى الفندق. وبما أن الأمور قد بدأت، فلو لم أذهب بالأمر إلى نهايته، حتى باستخدام القوة، فسأشعر بأن كبريائي لن يغفر لي. بيد أنها غيرت رأيها فجأة، فبدأت بالتوسل إليّ بأن أنتظر يوماً آخر بعد. لأنها لو أمضت ليلة في فندق في المدينة، فإن زوجها سيعرف بالأمر على الفور. طلبت مني أن أنتظر حتى مساء اليوم التالي، لأنها سوف تبحث لنا عن مكان

أكثر أماناً.

س: هل انتظرت؟

ج: كنت أشعر بالاحتقار تجاهها بما يكفي لكي أنتظر.

س: وماذا حدث؟

ج: في اليوم التالي، في وقت متأخر من المساء، وصلت، متأنقة أكثر من أي وقت مضى، تقود سيارة MG حمراء. حتى ذلك الحين، لم أكن أتخيل أنها تستطيع القيادة. كانت السيارة رائعة، صعدتُ إلى داخلها.

"إنه منزل شخص أعرفه. يقع في الضواحي ولن يعرف أحدٌ مكاني. سآخذك إلى هناك. إنه منزل يسمح فيه المالك لأصدقائه بفعل ما يريدون؛ مهما حدث، لا تتفاجأ".

هذا ما قالته لي على سبيل التحذير، ثم انطلقت بسرعة كبيرة عبر المدينة، في منتصف الليل. توجهت نحو تاماغاوا، اجتازت الجسر، وسلكت طريقاً لم يكن فيها الكثير من المنازل، وسط بستان يُشكل ظلالاً كثيفة تحت ضوء القمر.

س: هل أخذتك إلى منزلها؟

ج: نعم. لكن لغبائي، لم أدرك ذلك إلا صبيحة اليوم التالي. بمجرد وصولنا، أشعلت شمعة، عبرنا قاعة مظلمة، وصعدنا الدرج.

ضحكت في نفسي قائلاً: "التيار الكهربائي غير مقطوع، لكنها تريد خلق جو"، لكن في الوقت عينه جعلتني أشعر بالأسف لخوفها من الضوء. ثم أدخلتني إلى زاوية في غرفة كبيرة تقع في الطابق الأول. تسلّل ضوء خافت من خلال النافذة المبنية على الطريقة الفرنسية وهي تطلّ على الشرفة في حين كانت ستائرها مسدلة. كانت الغرفة مليئة بالأثاث القديم الداكن الذي شكّل حاجزاً منعني من رؤية ما كان موجوداً في عمق الغرفة.

تمدّدنا على أريكة كبيرة موضوعة بمحاذاة الحائط. في تلك اللحظة، تهيأ لي أنني سمعت همسة كأنه صوت امرأة مكتوم من بعيد، إلا أنني لم أستطع أن أميّز إن كان

الصوت عبارة عن بكاء أو عن ضحكة، لكنها قالت لي: "لا تقلق". لذا لم أشعر بالقلق. في الحقيقة، كنت قد تناولت قدراً كبيراً من المنشطات مع البيرة التي شربتها، لذا لم أجد أي صعوبة في الإحساس بالطريقة التي أردتها.

خلعت ملابسها في الظلام، ثم قفزت عليّ، كما لو كانت مذعورة، لكن لم يكن الذعر هو السبب، لقد كانت فرحة عنيفة وصادقة بشكل مؤلم. أعرف عدداً قليلاً من الفتيات، لكنهنّ غالباً ما يضايقنني، لأنهنّ غالباً ما يقمعن سعادتهنّ بدافع الغرور الفضولي، أو لأنهنّ يحسبن بهدوء سعادتهنّ بأنفسهنّ، يعبّرن عن سعادتهنّ باعتدال مثل القطط، يترجمن لغة الجنس إلى لغة العقل غير المثيرة للاهتمام، إذ يرمين الصيغ الرومانسية البعيدة تماماً عن المعنى.

بيد أن هذه المرأة الأربعينية كانت الأكثر أنوثةً من بين جميع اللواتي التقيت بهنّ. كانت قد ذابت في الظلام، مثل مجرة درب التبانة في سماء ليلة صيف، ليفيض منها ضوء غامض كالحليب. وفي منتصف شهقاتها، أمسكت بوجهي عدة مرات، كما لو كانت في حالة هذيان. عندما تأكدت من وجودي هناك، همست لي بصوت لا يكاد يُسمع: "ريوسوكي...".

بسبب المنشطات، لم أعر انتباهاً لذلك، بل سخرت منه، وقمت بمداعبتها بشكل مكثف. ربما كررت اسم هذا الرجل أربعَ أو خمسَ مرات. ثم، كما لو كانت تريد أن تتحقق من هذا الاسم، قامت بتفحص بشرتي.

لم أهتم بالأمر على الإطلاق. أو بالأحرى، في هذه السعادة المجردة التي كنت أستمتع بها، لحظتها، كنت غيرَ مبالٍ بالعالم كله، حتى إنني كنت أسخر منه. في تلك اللحظة بالذات، كنت سأسخر حتى من قنبلة هيدروجينية. كنت سألعب بأصابع قدمي.

ومن دون أن أنتبه، غفوت.

س: وجاء ذلك الصباح.

ج: في الصباح... عندما استيقظت، كانت الغرفة مظلمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

س: ما الذي رأيته أولاً عندما استيقظت؟

ج: لم أحاول أن أرى، لكنني أحسست بوضوح، في هواء الفجر البارد، أنها لم تعد موجودة. استيقظْتُ مندهشاً. رأيت حينذاك، خلف الأثاث، شيئاً أبيضَ ممدداً. بدا كأنه امرأة. دنوت منه، كذئب، على أطراف أصابع قدمي، مع الحرص على عدم الخطو على أي من أثاث الغرفة. حتى قبل أن أتمكن من رؤية هذا الوجه النائم، أدركت على الفور أنها يوري.

ندهت بصوت خفيض "يوري!"، وقمت بهزها.

س: هل استيقظت يوري على الفور؟

ج: نعم. عادة تستيقظ بسهولة.

" لِمَ أنتَ هناك؟ سألتني، وهي تتفحصني بعينيها المفتوحتين على مصراعيها.

– وأنتِ، لِمَ أنتِ هنا؟

– أحضرني رجلٌ إلى هنا الليلة الماضية. الرجل المحترم الذي التقيته في فندق رينبو الشهرَ الماضي.

– نعم. أذكره. لقد استغلّانا.

– بمَ؟

– لقد استخدمانا. جعلا منّا أدواتٍ لهما. الوغدان! لقد حصلا علينا حقاً.

– هكذا إذاً.

فهمت يوري الأمر بسرعة. ومن دون تسرع، استلقت نصف استلقاءة على الأريكة المقابلة لتلك التي كنت أنام فوقها قبل لحظات، لتعبث، والذهول يعتريها، بأطراف خصلات شعرها، وتمضغها في النهاية. ثم التفتت إلى النافذة الفرنسية، ولفتت انتباهي في ذاك الاتجاه.

س: ماذا رأيت بعد ذلك على الشرفة من خلال النافذة؟

ج: زوجين يتبادلان القبلات. كانا زوجين من دون أدنى شك. كانا نموذج الزواج الأحادي، الفريد من نوعه في هذا العالم. هما اللذان خدعانا واستغلانا.

س: وبعد ذلك؟

ج: حدقت فيهما. كانا منتشيين في عناقهما.

س: كم استمررتَ في ذلك؟

ج: خمس دقائق... عشر دقائق... أعتقد أنها كانت أطول من ذلك.

س: بِمَ شعرت حين رأيتهما؟ بالغضب؟ بالمرارة؟

ج: لا.

س: لكن، وبشكل تدريجي، شعرتَ بأن مزاجك يحتدّ. فقامت يدك عن طريق الخطأ بلمس جيبك، فالتقت أصابعك مطواة. ومن غير التفكير في الأمر، أمسكتَ بها وسحبتَ الشفرة. أليس هذا، ما قمت به، هو نوع من الغضب؟ أو أنك ستستمرّ في القول إنك حافظتَ على هدوئك؟ ثم هرعتَ إلى الشرفة، وطعنتَ الزوجة أولاً ثم الزوج. لا يوجد شك محتمل حول جريمتيك. ولكن إذا أطلق الشاب غضبه بشكل أعمى لأنه استُخدمَ واستُغلّ، فمن المحتمل أن يحصل على ظروف مخفّفة. لماذا لا تقول ذلك؟

ج: لا أستطيع أن أقول ذلك. لأنه لم يكن مجرد غضب.

س: إذا لم يكن مجرد غضب بسيط، فما هو نوع هذا الغضب؟

ج: كيف أصف ذلك؟ ماذا يمكن أن نسمي هذا المزيج المشوش من الغضب والإعجاب؟ كيف نصف الغضب الذي تختلط فيه اللذة والطموح؟

بعد أن شاهدت هذه القبلة الطويلة لهذين الزوجين الآثمين، المهووسين وغير الإنسانيين، شعرت تدريجياً بأنهما قد "تلاعبا بي". لم يكن الأمر غضباً لأنني خُدعت أو تمّ استغلالي. لكنه الشعور بالهزيمة الذي وصل إلى رقبتي، مثلما يصل الماء خلال

عملية تعذيب. لا أعرف لِمَ هذا، لكن في تلك اللحظة شعرت أننا شخصان مزيفان بينما هما شخصان حقيقيّان. كنّا، إلى جانبهما، مجرد ظلال عابثة، شابّين عديمي الفائدة. هذا كل ما نستحقه، أن نُستغل على هذا النحو.

بدا الأمر غريباً: خلال هذه القبلة الطويلة، كانا يتحولان مع نور الفجر الذي اشتدّ قليلاً. بدأت هذه الجلود المكرمشة في الظهور بشكل أفضل وأصغر من أي زوجين شابين وجميلين.

كانت صيحات الديكة تتردد في أذني. وفي وسط هذه الأغاني الجنائزية، كان الرجل والمرأة يبدوان جميلين مثل تماثيل البورسلين الهشّة التي على وشك الانهيار ليتخذا لون ظلال الفجر الوردية. لم أرَ قبلة بهذا القدر من الجمال والنقاء من قبلُ ولن أرى قبلة مماثلة مرّةً أخرى.

وقفتُ وشهرتُ النصل في وجههما.

س: لماذا؟

ج: لأنّ... لأنّهما كانا جميلَين وحقيقيَّين. هذا هو السبب. ما من سببٍ آخر لقتلهما.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

من أعماق الوحدة

(1967)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الساعة السادسة من صباح أحد أيّام موسم الأمطار. كنت قد نمت لتوي بعد ليلة مكرسة للعمل عندما أذهلني صوت والدي الذي وصلني من خلال مكيّف الهواء المثبت إلى جانب سريري.

يجب عليّ أن أشير إلى أنه منذ اليوم الذي تمّ فيه حفر جدار غرفة نومي من أجل عملية تركيب هذا الجهاز، لم أتوقف عن الشعور بالانزعاج، خلال نومي، بسبب الضوضاء القادمة من مواقع البناء المجاورة أو بسبب دعوات المرشحين الذين يناضلون للانتخابات: في الصيف كما في الشتاء، يُسمح لشائعات الخارج بأن تمرّ كمجرد شعور بالغيرة!

سأضيف أخيراً أن والديّ يشغلان جناحاً مستقلاً عن جناحي، على الرغم من أنهما مشيدان على الأرض عينها. وبما أنهما يستيقظان في وقت مبكر جداً من الصباح على طريقة كبار السنّ، يحدث لي أحياناً أن أخلد إلى الفراش بعد أن ينهضا من السرير.

في ذلك الصباح، سمعت صوت والدي ينادي شخصاً، بصوت مفعم بالحيوية: "مرحباً! أنت هناك! توقف قليلاً؛ ما زلنا نائمين!" لم أسمع الجواب. كنت ما أزال عالقاً ما بين لحظة الاستيقاظ والنوم، إذ لم أكن على دراية كم كانت عليه الساعة، لذا افترضت أن أحد أفراد الأسرة قد أمر عامل توصيل ما بالقيام بأعمال نجارة وأنه خوفاً من أن تزعج الضوضاء راحتي، فقد تدخل والدي ليذكّر هذا الشخص بأن يلتزم بالنظام. لنفترض، علاوة على ذلك، أن هذه هي الحال بالفعل، لكنه هو، فجأة، بصراخه المفاجئ، قد سحبني من بداية غفوتي!

كانت هناك هدنة قصيرة (هل تمّ الالتزام بدعوة والدي للحفاظ عل الهدوء؟) فحاولت أن أعود إلى نومي...

صدح صوت والدي مرة أخرى، بل جاء هذه المرة بشكل أكثر إلحاحاً: "مرحباً، أنت هناك، ظننت أنني طلبت منك التوقف!". لكن الجواب الوحيد الذي أتى جاء على شكل ضجيج، كما لو كان أحدهم كان يطرق الخشب، فشعرت بالضيق الشديد من فكرة سوء النيّة هذه. تابع والدي: "لا يجب أن تدق على هذا الباب بهذه الطريقة،

سوف تكسره في النهاية!". أخيراً، ظهرت لي طبيعة هذا الوضع غير العادية. أجبرتني الستائر الموضوعة بعناية فائقة، لضمان راحتي من ضوء النهار، على رفع رأسي بشكل كامل لأقرّب عيني من إطار الساعة الموضوعة إلى جانب سريري كي أنظر إلى بندولها: كانت تشير إلى السابعة.

فجأة، سمِع صوت صراخ مدوّ ليحلّ مكان الضوضاء الذي أفسح مكانه لصوت ضربات غريبة ومتكررة ذكرتني بتلك التي نسمعها في المسرح حين تُقرع الأبواب الخشبية العالية الخاصة بالديكور، لمّا تزعق إحدى الشخصيات بالصراخ، قائلة: "الباب! افتحوا الباب!" وذلك من أجل السماح له بالمرور. تولد لديّ انطباع، في تلك اللحظة، برؤية قبضتين مرفوعتين أمام عينيّ للتهديد...

قفزت من على سريري، وارتديت رداء الحمّام، ملتقطاً سيفي الخشبي لأندفع إلى غرفة زوجتي، الواقعة إلى جوار غرفتي. كانت مستيقظة بدورها أيضاً. وما إن رأتني حتى صرخت، "رأيته!" لكنني لم أفهم ما تعنيه، في تلك اللحظة. هرعنا إلى الطابق الأرضي حيث كانت الخادمة والمربية تبدوان مذعورتين. لم يتوقف باب الخدمة، الذي اهتزّ بسبب الضربات المستمرة، طوال هذا الوقت عن الدمدمة مع ضوضاء باهتة مصحوبة بصرير سلسلة الأمان.

أفترض أن والدتي، من جهتها، قد أبلغت الشرطة بالفعل. ومع ذلك، ركضت زوجتي إلى المطبخ وأعطتني الضوء لألتقط الهاتف: كان الطقس في ذلك الصباح ممطراً والجو مظلماً جداً داخل المنزل. ثم أشارت الخادمة إلى أنه قد يكون من الأكثر أماناً عدم تشغيل الضوء، إلا أن زوجتي، التي تجاهلت ملاحظتها، اتصلت بالرقم الذي لم تستطع الحصول عليه على الفور، كان الخط مشغولاً. في غضون ذلك، توقف الضرب على باب الخدمة. وعندما تمكنت زوجتي أخيراً من الاتصال بالشرطة، قيل لها: "سنأتي إلى منزلك على الفور. من فضلك انتظري بضع لحظات أخرى".

تناهى إلينا ضجيج الضربات، في تلك اللحظة، من اتجاه آخر لم أستطع تحديد مصدره؛ في صمت المنزل، لم نعد نسمع سوى ضجة هذا الضرب العنيد ذي العنف الذي لم يسبق له مثيل...

أسرعت إلى الطابق الأول، لأن الرجل كان يهاجم النافذة الغربية لغرفة زوجتي. كانت الستارة التي تغطيه، تخفي الدخيل تماماً عن نظري، فلم أستطع رؤية سوى إطار الباب الصلب الذي يرتجف، في الزاوية، ويهتزّ تحت قوة الدفع، كما لو كان تحت هجوم أعمال شغب اندلعت فجأة في هذا الصباح الرمادي. كانت ستارة الدانتيل ترتجف بدورها أيضاً، ومفاصل المصاريع تهتز، كما لو كانت على أهبة القفز من مكانها...

عدت ونزلت مجدّداً إلى الطابق السفلي، غيرَ قادر على الوقوف والتحديق في النافذة لفترة أطول. في الأسفل، كانت النساء يتشاورن ويناقشن بصوت سريع مكتوم، الترتيبات التي يجب اتخاذها لوضع الأطفال في مكان آمن: كان علينا أن نجد الغرفة التي من شأنها أن توفر أفضل مكان للاختباء ومن ثم، ربما، وسيلة للهروب... فجأة سمعت، في مكان ما بالمنزل، تحطم زجاج مكسور. قالت زوجتي: "من المؤكد أنه يقصدك أنت بالذات، لذا فمن الأسلم لي أن أذهب وأرى ما يحدث". استلت السيف مني وخطت خطوة نحو السلّم. دفعتها إلى الوراء: "سأترك لك هذا السيف"، قلت لها، لأعطيها إيّاه، "لكنني سأصعد لأحضر واحداً آخر لنفسي"، وتوجهت إلى مكتبي في الطابق الأول. تخيّلت لحظتها أن أجد الغرفة مهجورة، وغارقة في الهدوء والظلام من جرّاء مغادرة شاغلها لها، بيد أنني لم أفكر البتة، في تلك اللحظة، في أي شيء سوى الدخول للاستيلاء على السيف وإلقاء نظرة في الأرجاء لرؤية الأضرار.

لذا اتجهت نحو الغرفة، لكن ما إن وصلت إلى عتبة الباب، توقفت على الفور: في نصف ضوء الغرفة المغلق بالستائر السميكة، رأيت وجه رجل يقف في الزاوية، خلف طاولة عملي. كنت أعرف مكان سيفي. لذلك، ومن دون أن أرفع عينيّ عن الرجل، كنت أتلمس السلاح وأضع نفسي على أهبة الاستعداد: عندها فقط شعرت بالهدوء.

كان يقف أمامي شابٌ نحيف، طويل القامة جداً، يرتدي سترة خفيفة. لم أرَ قطُّ وجهاً شاحباً مثل وجه هذا الرجل الذي حدّق بي في الضوء الخافت. فتح بيده (تعرفت عليه بسهولة) أحد مجلدات الموسوعة الخضراء العظيمة التي أخذها من الرف خلف طاولتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت بإحساس غريب من الارتياح: آه، فهمت! هكذا فكرت، إنه شخص آخر من هؤلاء المجانين الذين يعيشون في عالم الكتب المحض! حسناً، ما من شيء ما يدعو إلى القلق إذاً! لكنني ما زلت على أهبة الاستعداد، وسيفي في يدي اليمنى. سألته: "ماذا تريد مني؟". بدا وجه الشاب شاحباً على وشك التشقق والترهل تحت تأثير التوتر الشديد. بعد ذلك، خلت ملامحه من أي تعبير، فتفحصني بنظرة شغوفة، شبيهة بتلك التي يلقيها حيوان يراقب فريسته، فقال متلعثماً: "كتاب... جئت لأستعير كتاباً منك". شعرت بأنه كان يخطو خطوة في اتجاهي، إلا أنه توقف، وكان جسده يرتجف وذقنه منتصباً إلى الأمام، فسألني بصوت أكثر توسلاً: "من فضلك، قل لي الحقيقة!". "الحقيقة؟ أي حقيقة؟" سألته. كان يلهث، فكرّر سؤاله بشكل ميكانيكي: "من فضلك قل لي الحقيقة!". لم أفهم على الإطلاق ما كان يتوقعه مني، لكنني حاولت، على أمل الحصول على القليل من الوقت فقط، أن أجيبه بلطف: "دعني أقول لك الحقيقة. لكن نعم، بالطبع!".

فجأة، شعرت بأن أحدهم يدفعني من الخلف: اقتحم شرطي المكتب؛ تبعه اثنان آخران، قاما على الفور بالإحاطة بالشاب. بدأ هذا الأخير، بالصراخ من جديد، كما لو كان مصاباً بنوبة هذيان: "الحقيقة، قل لي الحقيقة!". قال أحد رجال الشرطة وكان يرتدي بزته الرسمية: "هيا، سنذهب ونتحدث بلطف في مكان أكثر هدوءاً". غادر الشاب مكتبي مطيعاً برفقة شرطيين، بينما أخذ الثالث الموسوعة من يديه وغادر معهما. على ظهر الكتاب، لاحظت بعد ذلك بقعة صغيرة من الدم... كنت مقتنعاً، وهو أمر يثير الفضول للغاية، بأن الشرطة ستنقله إلى غرفة أخرى حيث سيسمحون له بالدردشة، معي ولكن عندما وصلوا إلى الباب الخلفي، دفعوه فجأة من ظهره لإجباره على الخروج. بدأ الشاب بالتخبط، ما أجبر رجال الشرطة الثلاثة، الذين أرادوا جرّه إلى الشارع، لاستخدام كل مهاراتهم، فالطريقة التي أمسكوا بها سجينهم أو دفعوه فيها من كتفيه، تشهد بالفعل على أسلوب أكثر استنزافاً. وقف الشاب متراجعاً إلى الوراء تماماً، وكأن ورأسه على استعداد للانفصال عن جسده في أي لحظة. لم أعد أذكر تعابير وجهه حينها: ربما لأنني لم أستطع التحديق فيها. "سيّد ميشيما! سيّد ميشيما!"، وانتهى المطاف بصرخاته بأن ابتعدت.

***

حاولتُ في الصّفحات السابقة، أن أقدّم تقريراً، من وجهة نظري في ذلك الوقت، عن الأحداث التي وقعت في منزلي ذلك الصباح. أودّ الآن أن أدخل بعض التماسك على قصتي من خلال مراعاة رواية الأحداث التي قدمها لي والداي وزوجتي لاحقاً.

كانت والدتي أول من رأى ذاك الرجل، إذ كانت قد خطّطت للخروج من المنزل في ذلك اليوم، لذا استيقظت في وقت أبكر من المعتاد. ما إن نهضت من سريرها، حتى ذهبت إلى المطبخ مثلما اعتادت القيام بذلك كلّ صباح، ولم تتأخر الخادمة في الانضمام إليها، إذ كانت الضجة قد أيقظتها... لذا، في ذلك الصباح، وبما أنها لم تستيقظ بعد بشكل جيد، رأت والدتي من خلال ثقب الباب الموجود في باب الخدمة، ظلّاً أبيضَ وخفياً يتسلل. اقتربتْ لتلقي نظرة بشكل أفضل، فشاهدت رجلاً يكافح ضد باب غرفة التخزين. وبكونها ما زالت في حالة شبه سبات، لم لا تدرك لحظتها أنه كان من المفترض أن يكون البابان الأمامي والخلفي مغلقين. فوجود هذا الرجل، على أقل تقدير، في مثل هذه الساعة داخل العقار لم يبدُ لها بعد كعلامة على حدوث شيء غير طبيعي.

قالت لنفسها إنه من المحتمل أن يكون حِرَفياً مخلصاً قد جاء مبكراً في الصباح لتنفيذ أمر ما، لذلك نادته من خلال الباب، نصف المفتوح، قائلة: "إذا كان الأمر للسيّد ميشيما، فأنت مخطئ! استدر إلى يمينك واذهب إلى باب الخدمة!". استدار الرجل في اتجاهها، حدّق للحظة في الباب الذي يتسرب الصوت منه، ليتسلل بعيداً ويختفي في المقر الخلفي. ما إن غادر حتى ارتأت والدتي فجأة أنه كان يجب على البابين أن يكونا مغلقين... اتصلت بالمنزل عبر جهاز الاتصال الداخلي، وبعد تحذير الخادمة من أن شخصاً مشبوهاً يتجه نحو منزلنا، ركضت لتوقظ والدي. نهض على الفور وفتح المصاريع وخرج إلى الحديقة. "لا! ليس هناك، بل إلى الخلف!" صرخت والدتي. في هذه اللحظة بالذات، عادت لتتذكر وجه الرجل، الذي خطر على بالها، للمرة الأولى: إنه (وكانت متأكدة تماماً من ذلك) الشابّ نفسه المصاب بجنون العظمة الذي حضر، مرتين أو ثلاث مرات بالفعل منذ العام الماضي، طالباً إجراء مقابلة معي، إلّا أنّ

والدَيّ أو هي بالذات، أخذا على عاتقهما رفض طلبه في كلّ مرة. إذا كان هو حقاً، مثلما فكرت في ذلك ببعض الارتياح، فسيحرص والدي على تحذير هذا الشخص غير المرغوب فيه مرة أخرى ودفعه بعيداً.

عاد والدي، الذي كان يُسمع حتى ذلك الحين وهو يصرخ من الخلف، فجأة، إلى باب الخدمة ليقول بصوت عالٍ إلى والدتي "أسرعي! اتصلي بالشرطة!" التي هرعت إلى الهاتف، بعد أن فهمت الموقف على الفور. حصلت على الرقم بسرعة، لكنها بقيت بلا حراك لفترة طويلة وهي على الخط، كي تجيب عن سيل أسئلة محاورها الذي لا ينضب: عنوانكِ؟ الطريق للوصول إلى هناك؟ هل يمكنكِ أن تعطيني واحداً أو اثنين من المعالم؟ هل الأبواب مقفلة؟ كيف الوضع الآن؟...

من هنا جاءت صرخات والدي، في ذلك الصباح، تلك الصرخات التي سحبتني من رقادي: لقد غادر الحديقة الأمامية، ومن مدخل الزقاق الذي يؤدي من الخلف إلى منزلي، نادى الرجل. عندما رأى في الواقع أنه يعالج الباب بقوة لكسره، انتهى به الأمر مهدداً: "هذه محاولة لغزو منزلي! لن أسمح لك أن تفعل ذلك، أنا من أقول لك هذا!".

لا فرق! ردّ الرجل قائلاً، بنظرته المهدّدة.

"لكن ماذا تريد في النهاية؟ إذا كان لديك ما تقوله لميشيما، تعالَ وتحدّث معي أولاً"، صرخ والدي على الرجل الموجود في الطرف الآخر من الممر.

– لا، إنه هو الذي أريد أن أراه ولا أحد غيره! لدي شيء مهمّ جدّاً لأخبره به!

– وهذا سبب إضافي!

"قلت لك إنني لا أريد أيّ وسيط بيننا!" صرخ الرجل قبل أن يأتي ويلقي بنفسه قافزاً بكلّ قوته على باب الخدمة في المنزل. أدرك والدي أمام انفجار العنف هذا، أن الرجل ليس بكامل قدراته العقلية، ثم عاد ليطلب من والدتي الاتصال بالشرطة. بيد أن الرجل، وبعد أن تخلّى عن فكرة تحطيم الباب في هذه الأثناء، عاد إلى الحديقة حيث كان يصرخ باسمي.

أيقظت صرخاته زوجتي، التي فتحت نافذة غرفة نومها لتشاهد الرجل وهو يصرخ في الحديقة. من جهته، لاحظها الرجل أيضاً، على ما يبدو. وبعد أن تعرفت إليه باعتباره الشاب الذي رُفض عدّة مرّات بالفعل، تفاجأت زوجتي باكتشاف وجوده في الحديقة في مثل هذه الساعة المبكرة، فاختبأت خلف نافذة غرفة نومها التي أغلقتها. في تلك اللحظة بالتحديد دخلتُ والسيف في يدي، فصرخت في وجهي: "لقد رأيته!".

بينما كنّا نتحدّث في الطابق الأرضي، صعد الرجل، متكئاً على تسقيفة الشرفة، إلى الطابق الأول وبدأ يطرق على النافذة التي رأته زوجتي منها قبل لحظة. لم يستطع فتحها فانزلق على طول الحائط لكي يصل إلى النافذة التالية، نافذة غرفتي. حطّمها بقبضته، ومدّ يده إلى الداخل لفتحها، ثم مرّ عبر الغرف المختلفة، وجاء إلى مكتبي، حيث بدأ في القراءة، مُفسكاً من على رفّ، خلف طاولة عملي، بمجلّدٍ من الموسوعة. سأعرف لاحقاً، بعد التحقق، أن المجلد التاسع هو الذي أمسك به وهو الخاص بالكلمات التي بالحرف K. ما المقالة التي أراد الرجوع إليها؟ ألم يكن اختيار المجلد التاسع ثمرة حظ فقط؟ هل أدرك الرجل في ذهنه المرتبك أن ليس لديه سوى مجلد بسيط من الموسوعة، في يده؟

وصل صوت تحطم الزجاج المكسور إلى أذنَي والدتي، التي كانت لا تزال معلقة بخط الهاتف تجيب عن أسئلة مُحاورها اللامتناهية. "يا للهول!" صرخت في آلة الهاتف، "لقد كسر نافذة! يجب أن يكون قد دخل إلى المنزل الآن!". أخيراً أغلقت السماعة على الطرف الآخر من الخط. لقد أرهقت هذه المحادثة الطويلة والدتي، التي تعاني من القلق: إذاً لم تصل سيارة الدورية بعد. كان من المفترض على العسكريين الموجودين في مركز الشرطة المجاور، الذين تمّ تنبيههم من قبل القسم، أن يكونوا قد وصلوا إلى هنا منذ فترة طويلة... لم تعد قادرة على التحمل، خرجت بملابسها الليلية، وفي يدها المظلة إذ كانت تمطر بالخارج. استدارت في زاويتها، وسلكت الشارع المنحدر بلطف، وبعد أن وصلت إلى المبنى السكني، صادفت شرطيّاً قديماً تعرفه جيداً، وبخطوة هادئة، اتجه صوبها، وهو يبرم عصاه. "أسرع!" صرخت له، "تعال بسرعة!". شرع الشرطي بالركض نحو المنزل، فتبعته والدتي على الفور.

وصلت سيارة الدورية في هذه الأثناء، وبالتالي أصبح عدد أفراد الشرطة ثلاثة.

من جهتها، عادت زوجتي التي كانت على وشك الانضمام إليّ في الطابق الأول، إلى باب الخدمة لأن الضربات استؤنفت من جديد، ضربات بشكل عنيف، لدرجة أنها لم تدرك على الفور بأنه صوت والدي يدعو إلى أن يفتحوا الباب أمامه: ظنّت في البداية بأن الرجل هو من عاد إلى الحديقة، لكن وبعد أن أدركت أخيراً أن والدي هو الذي يصرخ، أسرعت إلى فتح الباب: اندفع أيضاً رجال الشرطة الثلاثة إلى داخل المنزل، في الوقت عينه مع والدي. خلعوا معاطفهم الواقية من المطر وكانوا يستعدون لخلع أحذيتهم بدافع الأدب: "لا، أرجوكم"، قالت لهم زوجتي، "احتفظوا بها!". لكن، وعلى الرغم من ذلك، خلع رجال الشرطة الثلاثة أحذيتهم، بضمير حيّ، ثم صعدوا إلى مكتبي مع والدي وزوجتي.

لو عدت إلى التفكير في الأمر، لما بقيت لحظة واحدة وحدي مع هذا الرجل.

خلال الثلاثين أو الأربعين دقيقة التالية، ذهبنا أبي وأنا إلى مركز الشرطة في سيارة الدورية التي نقلتنا على متنها. هناك، جعلونا نقدم شكوى، كلّ من جهته، وفق ما تقتضي الأصول، وقد استغرق ذلك ما يقارب الساعتين. في الخارج، بزغ نور الطقس وبدأت نوافذ الغرفة، المصقولة، حيث نوجد، تتلألأ في الضوء.

سمح لي وجود أحد شركائي في لعبة الكندو(6) من بين رجال الشرطة باستعادة أنفاسي إلى حدّ ما وإظهار بعض الطمأنينة. وعلى الرغم من ذلك، حرصت على عدم إثارة أي اعتراض عندما تجبرني الشرطة على أن أتطرق إلى الطريقة التي يمكن بها، بفضل الإجراءات القانونية المناسبة، تحويل أفعال المتهم وإيماءاته إلى ما تمّ الاتفاق على تسميته، بموجب القانون، "قضية". لذلك، لا أشعر بأي حال من الأحوال بأي ميل إلى أدنى شعور بالشفقة الإنسانية تجاه هذا الشاب، ولا أكثر استعداداً لطلب أي عفو من المحكمة لصالحه: ألم يزعج، بعد كلّ شيء، سكينتي الشخصية وسكينة عائلتي بأسرها؟ يبقى فقط أن يتحمل العقوبات القانونية المنصوص عليها لهذا الغرض، أما إذا تمّ التعرف على أنه مريض عقلياً وبالتالي غير مسؤول عن أفعاله، فإن الأمر متروك لمؤسسة نفسية لاتخاذ الإجراءات اللازمة لعلاجه ومنعه من أن

يعرّض أحداً للأذى مرة أخرى. مهما كان الأمر، فإن هذه "القضية" لم تعد تعتمد عليّ...

(6) حرفياً تعني باليابانية "طريق السيف" وهي الشكل الحديث من "كينجتسو" (تقنيات السيف). وعلى الرغم مما يوحي الاسم، تفترض هذه اللعبة القتالية أيضاً جانباً روحياً، إذ عليها أن تطور عند ممارسيها قواها العقلية وإرادة فعالة. (م.)

اكتملت شهادتي، فخرجت إلى المكتب المجاور لأخذ قسطاً من الراحة؛ بعد لحظات، دخل أحد رجال الشرطة مع الشاب من أجل إثبات هويته: كان لا يزال يرتدي السترة النظيفة عينها ذات اللون الفاتح، إلّا أن وجهه فقد مظهره الباهت، كما أن الجرح الذي أحدثه في يده، حين كسر لوح الزجاج، عولجَ بشكل مناسب. غادر الغرفة لاحقاً، كما لو أن شيئاً لم يحدث. سار، وهو لا يزال تحت حراسة الشرطي، بين مختلف المكاتب التي يتجمّع الناس بالقرب منها. ارتسمت على مُحيّاه ملامح شخص منتصر، وعندما التقت عيناه بعينيّ (كنت لا أزال جالساً)، لم أجد أي وميض يلمع في نظرته كي يخون تلك الصلاة اليائسة التي ارتفعت من أعماق روحه، قبل ساعات قليلة. لم أرَ في تلك اللحظة أي ملمح على هذا الوجه سوى وجه شخص غريب. عندما غادر الغرفة، ألحّ والدي بالسؤال عن سبب ربطهم لعصبة حمراء حول ذراعه. أجابه المفتش، الشبيه بأحد لاعبي الجودو، فتبدو رقبته غارقة بين كتفيه: "أتعلم؟ هذه الأيام، لم يعد هناك أي طريقة لتمييز المشتبه بهم عن الأشخاص الطيبين، كلّهم يملكون هذه الوجوه الطيبة! لذلك اعتقدت أنه مع شارة حمراء سنرى الأشياء على الفور بشكل أكثر وضوحاً!"...

عدت إلى منزلي ونمت لساعة أو ساعتين: لديّ موعد في فترة ما بعد الظهر، وكنت أحتاج إلى أخذ قسط من الراحة... عندما استيقظت، كانت شمس الصيف ساطعةً في الخارج، والصباحُ المعتم غارقاً في الضباب، بدا لي الأمر كلّه مجرد حلم بعيد؛ إلا أن وجه الشاب الشاحب المخيف، الذي ظهر لي في نصف ضوء المكتب، لم يتركني طوال اليوم...

في الحقيقة، ليست هذه هي المرّة الأولى التي أعرف فيها زيارات غريبة مماثلة،

منذ أن اعتنقت مهنة الكاتب. حتى إنني اضطررت للتعامل، ذات يوم، مع شخص هدّدني بالابتزاز بزعمه قصة خالية من أي أساس! حاشا لي بالطبع مقارنة مجنون بأحد أسياد الابتزاز. إنني أدرك جيداً أن المبتز نفسه لديه مفاهيم غامضة عن القانون، وأنه يعرف كيف يستخدمها لتجنب الوقوع تحت تهمة "جريمة التهديد" أو كيف يغور عميقاً في شخصية عميقة ضحيته؛ يلهمني هذا النوع من الشخصيات بما هو أكثر قليلاً من الكراهية أو النفور. بمجرد الاتصال بهذا الشخص، ومهما كان هارباً من وضعه، أشعر كأنني ملطخ بظلام روحه، لذا لم يفارقني الانطباع، طوال اليوم، بأن الشرّ قد انتشر في جميع أنحاء جسدي مثل رائحة الثوم النتنة، على الرغم من جهودي الحثيثة للتخلص منه، إلا أنه بقي عالقاً ببشرتي...

كانت الأمور مختلفة تماماً مع هذا الشاب الذي لم يُظهر وجهه، ولا بأي شكل من الأشكال، روحاً خبيثة، كما أنه لم يثر في داخلي اشمئزازاً ولا نفوراً. عندما وجدت نفسي، مسلحاً بسيفي، وجهاً لوجه مع هذا الدخيل الغريب والضعيف الذي كان يقف مرتعشاً، وكانت موسوعته مفتوحة في يده، لم أعتقد للحظة أنني أستطيع مهاجمته. لا أدّعي أنني لم أبحث عن وسيلة لأحمي نفسي إذا ما حاول من جانبه مهاجمتي وبأنني لن أصل إلى حدّ ضربه برفق على معصمه. لكن، ما من لحظة، شعرت خلالها، تجاه هذا الرجل الذي اقتحم منزلي، في تجاهل واضح للقانون، بما يكفي من العداء للدوس عليه وتوجيه ضربات حقيقية له. لا يبدأنّ أحدٌ بالقول إن موقفي هذا قد أملته عليّ الشفقة أو أيّ مشاعر إنسانية أخرى؛ أو أيضاً إن غروري قد شعر بالإطراء من حقيقة أن هذا الرجل المجنون المسكين، بعيداً عن أن يكون قد تحرّك بنيّة إيذاءي، سعى فقط إلى مقابلتي، حتى لو كان سيواجه بالرفض، مقتنعاً، وعلى العكس من ذلك، بأنني متسلح بقوى خارقة: أنا لست جشعاً للحصول على المجد لدرجة أنني أصبحت أتسوله من الأرواح المشوشة التعيسة!

لا، ما شعرت به في ذلك الصباح، في مواجهة الشاب الذي كان شاحباً للغاية، كان شيئاً مختلفاً تماماً: فمشاهدته يرتجف في ظلام هذا المكتب الذي كنت أتوقّع أن أجده فارغاً، ليست سوى صورتي الخاصة التي اعتقدت أنني رأيتها ترتفع أمامي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل أحتاج إلى أن أضيف، هنا، أنه حتى يومنا هذا، لم أعانِ قطّ من أي نوبة جنون؟

فيما يخصني، لم أكن لأسمح لنفسي أبداً، أن أطلب – من دون الحرص على تزويد نفسي برسالة توصية – مقابلةَ كاتب ما، من أولئك الذين أفردت لهم ميول إعجاب خاصة، وحتى في بداياتي، أي في ذلك الوقت حين كنت في العشرينات من عمري وكنت أحترق بشغف حقيقي بالأدب. لم أحاول البتة، برغم حجة الرفض، دخول منازلهم بعد كسر نافذة، أو التنقيب في مكاتبهم أو رمي نفسي في موسوعاتهم! لم تخطر ببالي مثل هذه الفكرة؛ علاوة على ذلك، لم أشعر يوماً بمثل هذه الحماسة لأي شخص. لم أشعر قطّ بأي جاذبية لعالم المجانين، ولم أبذل أدنى جهد لفهمهم. لا تهمني الأحداث أو الأشخاص إلا بقدر ما يقدمون نفس طابع التماسك المنطقي الذي يحكم الأعمال الفنيّة، وإذا ما حدث أن وجد "الممسوس" حظوة في عيني، فذلك لأن "الامتلاك" والاتساق هما صنوان بالنسبة إليّ. ومع ذلك، فإنني أحرص على نسيان أنه، حتى لو كان هناك، في بعض الأحيان، حدودٌ للتماسك المنطقي غير الواقعي، فإنه يظل مع ذلك ذا طبيعة تختلف اختلافاً جذرياً عن طبيعة الجنون...

Telegram:@mbooks90

غالباً ما أقول لنفسي إن كتابة الروايات، واكتساب الشهرة، هي مهنة فريدة جداً، بل مهنة خطِرة: ما هو الصدى غير المتوقع الذي ستذهب إليه كلماتي، في الواقع، لتوقظه في قلب القارئ؟

أودّ أن أقول إن الفنان لديه صفات ما تشبه صفات تاجر كحول، وسيكون نوعاً من تدنيس المقدسات من جانبه في أن يقدّم للجمهور عملاً لا يحتوي على الكحول، لذا يبدو لي أن هذا المكون ضروريّ: ما يبيعه الفنان في الواقع هو السكر، ولا شيء آخر. لنتخيل إذاً شخصاً عاقلاً تماماً يُعرّض نفسه للشرب، مع معرفة كاملة بالحقائق: سيسمح رجُلنا لنفسه بالوصول إلى حالة السكر ذات مساء، ثم، بعد أن تتبدّد البهجة، سيعود بالتأكيد إلى حالته الطبيعية. الآن تخيّل شخصاً لا يعرف شيئاً عن الكحول ويعتقد أنه يتعامل مع أكثر المشروبات غير الضارة: ها هو رجلنا المريض، بسبب قلّة العادة! وأخيراً لنفترض أن رجلنا لا يتمتع بكل ملكاته الذهنية: لذا لن نجد لذلك، عند

الآخرين، أي عواقب، لن يفشل في إثارة ردود فعل مخيفة له بحجم غير متناسب...

لم تخبرني الشرطة شيئاً تقريباً عن حياة الشاب الخاصة، وفهمت فقط أنه يعيش بمفرده في طوكيو، بعيداً عن عائلته، وأنه يعمل في صحيفة. من كان يمكن له أن يشك في ذلك؟ لقد شعرت بوضوح، للوهلة الأولى، أن جنون الشابّ – حتى لو افترضنا أنه أظهر ميولاً طبيعية – لا يمكن إلّا أن يكون ثمرة أفظع العزلات، ولكن كان من الواضح، مع ذلك، أن الشكل الذي اتخذه جنونه (يمكن أن يظهر نفس المرض العقلي، في الواقع، تحت مظاهر مختلفة) كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود عملي: إذا لم أكن كاتباً، فلا شك أن الشاب لم يكن ليطالب بأعمالي لإطلاق العنان لأخيلته وما كان ليهاجمني أنا بالذات...

القراءة والكتابة هما، بالطبع، نشاطان منفردان، لكن النص المطبوع يسمح لوحدة الكاتب بالانزلاق إلى قلب الآخر، وهو مكان غامض لم أوجه نظراتي إليه بعد، ولا أعتقد أنني سأفعل ذلك في يوم من الأيام... فبفضل تطفلي وجنونه، تولد لديّ انطباع، للمرة الأولى (وهذا ما لا يحدث للكاتب مطلقاً)، دفعني إلى أن أتأمل – على وجهه الشاحب – وجهَ القارئ... (وذلك، على الرغم من أن الشاب كان يقرأ فقط أحد مجلدات موسوعاتي). أعتقد أنني طرأت، من دون أن أعرف أي شيء عنه أبداً، الشعور بالوحدة الذي غذّى جنون هذا الشاب، كما تخيفني فكرة من أنه يمكنني بالتالي المساهمة في تفاقم عزلة الآخرين، بيد أنه لا يسعني إلا التفكير، في الوقت عينه، بأنه كان من الممكن أن يكون هذا "الشيء" الذي نبت ثم نما في عملي مفيداً جداً له. لا أعرف كمية الأسمدة التي ستكون ضرورية لنمو جنونه وتطوره، لكن ما أعرفه هو أنني، عن غير قصد، سأعطيه نصيبي. لا شك أن الشاب عرف صباحات مختلفة وأياماً مختلفة وليالي مختلفة، ولكن في قلب الوحدة التي غزت، مثل الجذام، حتى خزانة ملابسه من الداخل، وصولاً إلى الفجوات بين ألياف الحصير التي تغطي أرض منزله، أنا على يقين، بأن الأمر انتهى به، ليجدني أنا!

يلهمني الناس الذين يعيشون في عزلة كبيرة للغاية بشيء من النفور، وأميل إلى الفرار من وجودهم، بيد أنّ روحي لا تتوقف أبداً عن ملاحقتهم ليلاً ونهاراً، من

خلال أعمالي، لطردهم من تلك الأماكن التي، كما لو كانت مخنوقة بسبب عزلتهم، يتجمّعون فيها. وعلى الرغم من أنني، ظاهرياً، أتوق إلى مجتمع يضمّ أشخاصاً مريحين من ذوي المزاج السهل، فإنّي أرفض أن أرى أناي التي في أعماقي تتجوّل إلى ما لا نهاية، وعلى ما يبدو، في منازلهم القاتمة؛ فهم بذلك يشبهون أولئك الموظفين الذين يقدمون خدمات الرعاية الاجتماعية، الذين يرتدون ألبسة قاتمة وباهتة، على الرغم من نظافتها، والذين يطوفون الريف لمساعدة المحتاجين.

في هذه الأماكن، تمارس الوحدة، التي تبرعمت جراثيمها على وجه الشاب الشاحب، عمليّاتِ التدمير. فعند أدنى لفتة، وبأقل كلمة، يثير الناس الذين هم على هذه الشاكلة، كراهية الآخرين، ويخافون من أن يتلوثوا بها، لذا ينحونهم جانباً بشكل غير محسوس. (هل يجب عليّ أن أعترف هنا أنني أنا أيضاً عانيت من هذه الوحدة؟)

"يا أحمقي المسكين": هذه هي العبارة، التي تجمع ما بين الحنان والازدراء، التي سأستخدمها من الآن فصاعداً، لتسمية الشاب، في بقية قصتي.

ذات صباح، إذاً، استيقظ "أحمقي المسكين". ها هو ينظف أسنانه، أو هذا ما أفترضه، فخنقه معجون الأسنان كما أن طعم رماد الوحدة ملأ فمه بالكامل. (طعم الرماد هذا، كما خبرته!). ها هو يُسخن الحساء: يفيض الحساء وتبدأ شعلة الموقد في نشر رائحة كريهة! رائحة الوحدة التي تصيب كلّ شيء – من دورات المياه إلى القطارات المليئة بالركاب أو صناديق القمامة – تلتصق بخياشيمه... ها هو الآن يشتري السجائر: من المستحيل إشعالها، فهي مبلّلة وترفض أن يدخّنها أحد! ها هو يراهن في سباق الخيل: كيف يمكن لتذكرته أن لا تكون خاسرة؟ ها هو أمام الآلات، فتفوح على الفور، من زيت المكابس الدوارة، رائحةُ نهاية العالم! ها هو أخيراً يفتح أدراج مكتبه ويكتشف، وهو كامن في الخلف، الوحدة ومن ثم أنا، رفيقه المخلص!

ولكن بعد ذلك، من أين جاء؟ بالطبع لم تخبرني الشرطة عنوان إقامته.

لكنّ انطباعاً يبدأ في الظهور بأنني أعلم: في قلبي أنا وُلد هذا الرجل المجنون المسكين، لقد جاء من عالم أفكاري! لا شك في أن هذا الرجل المجنون المسكين هو ظلّ نفسي، قرين هذا القلب الذي ليس بالبساطة التي أردت أن أصدقها...

إن قلب الروائي شاسع جداً لدرجة أنه يُؤوي المطارات والمحطات التي تخدمها شبكة من الطرقات المرصعة بالنجوم، تصطف إلى جانبيها مناطق الأعمال ومراكز التسوق! هناك أيضاً ممرات تصطف إلى جانبيها الأشجار ومناطق سكنية وقطارات ركاب ومشاريع سكنية كبيرة وملاعب بيسبول ومسارح! أعرف كل مسار، كل زاوية وركن عن ظهر قلب، حتى إنني أحتفظ بالخطة دائماً بعناية.

لكن هناك أيضاً مناطقُ شاسعة، عادةً ما تكون غيرَ معروفة بالنسبة إليّ، ولم أرغب في تضمينها. إذا كنت أعيش في حالة رفض لرؤيتها، فأنا أعلم جيداً أنني لا أستطيع إنكار وجودها: أعني هذه العزلة الشاسعة التي تحيط بالمناطق الحضرية في قلبي. من دون شك أنها تُشكل جزءاً لا يتجزأ مني، حتى لو كانت أرضاً قاحلة ومهجورة، إذ حرمتها من حق الوجود فوق خريطة قلبي. هي أماكنُ قاحلة لا تنمو فيها شجرة ولا يزهر فيها نبات!

من وقت لآخر، تهبّ الرياح على الصخور العارية التي تغطيها بطبقة خفيفة من الرمل الناعم، ثم تستمر في طريقها لتذهب وتريح نفسها أكثر... على الرغم من أنني أعرف الموقع جيّداً، فإنني أتأكد من عدم انقياد خطواتي صوب هذه العزلة الواسعة، لكنني أعلم أيضاً أنني ذات يوم غامرت هناك وأنه، عاجلاً أم آجلاً، سأضطرّ إلى المغامرة هناك مرة أخرى.

من هناك جاء "أحمقي المسكين"... أستطيع أن أقول ذلك الآن.

في ذلك الصباح، طلب مني أن أقول له الحقيقة كاملةً، لكنني لم أفهم ما يريد. الحقيقة؟ في هذه الصفحات ستجدونها كلها.

حول الكتاب

نبذة

تفقد توموكو ولديها في البحر فتتمزّق بين الشعور بالذنب والخوف على ابنها الأصغر.

زوجان مسنّان يحاولان الحفاظ على حبّهما بطرق غير عادية تنتهي بمأساة حقيقية.

شابّ مهووس بأحد الكتّاب يبلغ به الأمر حدّ اقتحام منزله والتسلّل إلى مكتبه.

تُدخلنا هذه القصص وغيرها عالمَ يوكيو ميشيما الفريد، وتأخذنا إلى قلب بلدٍ لا يتوقّف عن فرض سحره علينا.

يمكن لميشيما أن يكون مضحكاً، ومرحاً أحياناً، لكنّه قادرٌ أيضاً على الانغماس حيث الظلام.

قيل في الكتاب

'كاتب فريد' The Wall Street Journal

'عبقري الأدب الياباني' Libération

عن المؤلف

يوكيو ميشيما (1925-1970) روائي وشاعر وكاتب مسرحي وممثل ياباني. يعدّ من أشهر أدباء القرن العشرين. تأسّست عام 1988 جائزة أدبية باسمه تكريماً لمكانته.